التوحيد

من ينقذ السفينة
قبل الغرق !!

مجلة ■ إسلامية ■ ثقافية ■ شهرية ● تصدر عن جماعة أنصار السنة المحمدية ● العدد ٥٠٦ - السنة الثالثة والأربعون - صفر ١٤٣٥ هـ

الثمن جنيهان

سعادة الأمة في الاعتصام بالكتاب والسنة



إيداع الأموال في البنوك بفائدة محددة

الدعوة إلى وحدة الأمة وجمع الكلمة

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم

مَن ينقذ السفينة قبل الغرق؟

عندما تغرق السفينة فلن ينجو منها أحد، بينما مصر والمصريون منشغلون بالأحداث التي فرّقت ومزّقت، وداهمت كل بيت؛ أحداث عصبية، وقرارات مريبة، ما إن يصدر القرار حتى تجد المصريين صغارًا وكبارًا، رجالاً ونساءً.. الكل يقرأ ثم يحلل، ثم يناقش، ثم يحدث الخلاف، وسرعان ما ترى ردود الأفعال.. والغلظة قد أصبحت سمة التعامل!!

وفي ظل الغفلة تجد أيادي الأعداء تتمادى، ومؤامراتهم تحيط بنا من كل جانب، ينشغل عنا الكثير من إخواننا في عالمنا الإسلامي الذي يزيد على المليار ونصف المليار مسلم، وفي ظل هذا الانشغال والتغييب والاستهتار تعلن أنجولا في سابقة خطيرة حظرًا على الإسلام، وحملة شعواء لهدم المساجد ومنع المسلمين من أداء شعائرهم، وعنوانهم: «محاربة التطرف الإسلامي»!

وأنجولا تلك الدولة الصغيرة التي تقع في غرب إفريقيا يسكنها حوالى ١٨ مليون نسمة أغلبيتهم من النصارى ، بينما يقترب تعداد المسلمين من نصف مليون نسمة ، وهي أول بلد في العالم يعلن حظر الإسلام والمسلمين، والمسجد الوحيد الموجود في العاصمة «لواندا» تم هدمه وتسويته بالأرض، ومن قبل تم هدم مآذنته!!

فالأمر جد خطير، فاعتبار المسلمين طائفة غير مرغوب فيها على الأرض الأنجولية هو الهوان بعينه.. هُنَّا على أنفسنا فهُنَّا على الله، وهُنَّا على الآخرين!!

فلنُفق قبل فوات الأوان، فسوف يحاسبنا الله عما فرّطنا، وكفانا غفلة، فإن غرقت السفينة فلن ينجو منها أحد!!

والعجيب أننا ما زلنا ننتظر أمريكا.. والأمم المتحدة، ومجلس الأمن واللا أمن!!

أين المدافعون عن حقوق الإنسان.. وأين من دافعوا عن هدم التماثيل قديمًا في أفغانستان، فهل سيدافعون عن إبادة ديانة، ومن يدين بها في أنجولا؟! وهل سيهبون لنجدة المسلمين كما هبّوا لوأدهم من قبل في كل مكان؟!

وإنا لله وإنا إليه راجعون!!

التحرير

ثمن النسخة

مصر ٢٠٠ قرشاً ، السعودية ٦ ريـالات ، الامارات ٦ درهم ، الكويت ٥٠٠ فلس، المغرب دولار أمريكي ، الاردن ٥٠٠ فلس، قطر٦ ريالات ، عمان نصف ريال عماني ، أمريكا ٢ دولار ، أوروبا ٢ يورو

الاشتراك السنوي

١- في الداخل ٣٠ جنيهاً بحوالة فورية باسم مجلة التوحيد . على مكتب بريد عابدين مع إرسال صورة الحوالة الفورية على فاكس مجلة التوحيد ومرفق بها الاسم والعنوان ورقم التليفون

٢- في الخارج ٢٥ دولاراً أو ١٠٠ ريال سعودى أو مايعادلهما.

ترسل القيمة بسويفت أو بحوالة بنكية أو شيك على بنك فيصل الاسلامى فرع القاهرة . باسم مجلة التوحيد . أنصار السنة «حساب رقم / ١٩١٥٩٠»

بشرى سارة

تعلن إدارة المجلة عن رغبتها في تفعيل التواصل بينها وبين القراء في كل ما يتعلق بالأمور الشرعية لعرضها على لجنة الفتوى ونشرها بالمجلة على البريد الإلكتروني التالي: q.tawheed@yahoo.com

التحرير

٨ شارع قولة عابدين - القاهرة
ت: ٢٣٩٣٦٥١٧ - فاكس: ٢٣٩٣٠٦٦٢

البريد الإلكتروني
MGTAWHEED@HOTMAIL.COM
رئيس التحرير:
GSHATEM@HOTMAIL.COM

قسم التوزيع والاشتراكات
ت: ٢٣٩٣٦٥١٧
ISHTRAK.TAWHEED@YAHOO.COM

المركز العام:
هاتف: ٢٣٩١٥٥٧٦ - ٢٣٩١٥٤٥٦
WWW.ANSARALSONNA.COM

السنة الثالثة والأربعون / العدد : ٥٠٦ - صفر ١٤٣٥

في هذا العدد

فاعلم انه لا اله الا الله

جماعة انصار السنة المحمدية

صاحبة الامتياز

رئيس مجلس الإدارة
د. عبدالله شاكر الجنيدي

المشرف العام
د. عبدالعظيم بدوي

رئيس التحرير
جمال سعد حاتم

اللجنة العلمية
جمال عبدالرحمن
معاوية محمد هيكل
د. مرزوق محمد مرزوق

مدير التحرير الفني
حسين عطا القراط

سكرتير التحرير
مصطفى خليل أبو المعاطي

الاخراج الصحفي
أحمد رجب محمد
محمد محمود فتحي



افتتاحية العدد

سعادة الأمة في الاعتصام بالكتاب والسنة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وآله وصحبه أجمعين، وبعدُ:

فقد ذكرت في الحلقة السابقة بعض الأدلة القرآنية على ضرورة لزوم الصراط المستقيم، وأهمية جمع كلمة المسلمين على دين رب العالمين، وإتمامًا للفائدة أسوق هنا بعضًا من الأحاديث النبوية الشريفة الداعية إلى ذلك، وما فهمه منها أهل العلم، فأقول وبالله التوفيق:

جاءت أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم تحث على الجماعة، وتأمر بلزومها، وتنهى عن التفرق، وتحذر من الخلاف، ومما جاء في ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم». [مسلم: ١٧١٥].

وقد بيَّن هذا الحديث ثلاثة أمور مهمة رضيها الله تعالى لنا، وهي عبادته وحده لا شريك له، والاعتصام بحبله وعدم التفرق فيه، ومناصحة ولاة أمور المسلمين.

قال النووي رحمه الله في شرحه للحديث: «وأما الاعتصام بحبل الله، فهو التمسك بعهده، وهو اتباع كتابه العزيز وحدوده، والتأدب بأدبه.. وأما قوله صلى الله عليه وسلم: «ولا تفرقوا» فهو أمر بلزوم جماعة المسلمين، وتآلف بعضهم ببعض، وهذه إحدى قواعد الإسلام». [شرح النووي على مسلم: ١١/١٢].

وكلام النووي في الجماعة دقيق ومفيد، حيث ذكر أن لزوم جماعة المسلمين قاعدة من قواعد الإسلام، وهذا يبين أهمية ذلك وضرورة الحرص عليه، خاصة في زمن الفتن، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك، كما في حديث حذيفة رضي الله عنه وفيه: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ عَنْ الْخَيْر، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنْ الشَّرِّ؛ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَني، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه! إنَّا كُنَّا في جَاهليَّة وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بهَذَا الْخَيْر، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْر شَرٌّ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلكَ الشَّرِّ منْ خَيْر؟ قَالَ: نَعَمْ، وَفيه دَخَنٌ. قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بغَيْر سُنَّتي، وَيَهْدُونَ بغَيْر هَدْيي، تَعْرفُ منْهُمْ وَتُنْكرُ. فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلكَ الْخَيْر منْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَاب جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إلَيْهَا قَذَفُوهُ فيهَا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه صفْهُمْ لَنَا. قَالَ: نَعَمْ، قَوْمٌ منْ جلْدَتنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بأَلْسنَتنَا. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه فَمَا تَرَى إنْ أَدْرَكَني ذَلكَ؟ قَالَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلمينَ وَإمَامَهُمْ. فَقُلْتُ: فَإنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إمَامٌ؟ قَالَ: فَاعْتَزِلْ تلْكَ الْفرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْل شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلكَ». [مسلم: ١٨٤٧].

وعنوان الباب الذي ورد تحته هذا الحديث يؤكد ما سبق أن أشرت إليه وهو لزوم الجماعة عند الفتنة بصورة خاصة،



وهذا نص العنوان: «باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال، وتحريم الخروج من الطاعة ومفارقة الجماعة». قال النووي رحمه الله في شرحه للحديث: «وفي حديث حذيفة هذا لزوم جماعة المسلمين وإمامهم ووجوب طاعته وإن فسق وعمل المعاصي من أخذ الأموال وغير ذلك، فتجب طاعته في غير معصية الله، وفيه معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم وهي هذه الأمور التي أخبر بها، وقد وقعت كلها». [شرح النووي على مسلم ج١٢/٢٣٧].

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ؛ فَإِنَّهُ رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ؛ ثَلَاثُ خِصَالٍ لَا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ أَبَدًا: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ وُلَاةِ الْأَمْرِ، وَلُزُومُ الْجَمَاعَةِ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ». [مسند أحمد ١٨٣/٥، وصححه الألباني].

ففي هذا الحديث إلى جانب إخلاص العمل لله: الأمر بلزوم الجماعة، ومناصحة ولاة الأمور، وقد ذكر ابن رجب عن بعض أهل العلم معنى النصيحة فقال: «جماع تفسير النصيحة هي عناية القلب للمنصوح له كائنًا من كان، وأما النصح لأئمة المسلمين فحبّ صلاحهم ورشدهم وعدلهم، وحب اجتماع الأمة عليهم، وكراهية افتراق الأمة عليهم، والتدين بطاعتهم في طاعة الله عز وجل». [جامع العلوم والحكم ص٦٨].

الأمر بلزوم الجماعة:

وأما الأمر بلزوم الجماعة، فهو من أصل من أصول أهل السنة والجماعة، وقد وردت بذلك الأحاديث النبوية الصحيحة، ومنها: ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله لا يجمع أمتي- أو قال: أمة محمد صلى الله عليه وسلم- على ضلالة، ويد الله على الجماعة». [سنن الترمذي (٢١٦٧) وصححه الألباني].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عُمِّيَّة يغضب لعَصَبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فقتل، فقتله جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده فليس مني ولست منه». [مسلم: ١٨٤٨].

وعن الحارث الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الله عز وجل أمر يحيى بن زكريا عليهما السلام بخمس كلمات؛ أن يعمل بهن، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، ثم قال صلى الله عليه وسلم: إن الله عز وجل أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن، ثم ذكرهن صلى الله عليه وسلم وعقب عليهن بقوله: «وأنا آمركم

إن من أهم قواعد الإسلام التي أمرنا بها: لزوم جماعة المسلمين ، والتآلف فيما بينهم. ولا شك أنهما لن يتحققا إلا إذا اعتصم الناس بالكتاب والسنة.

بخمس الله أمرني بهن: الجماعة، والسمع والطاعة والهجرة، والجهاد في سبيل الله، فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جُثا جهنم، قالوا: يا رسول الله، وإن صام وإن صلى؟ قال: وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم، فادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله عز وجل؛ المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل». [مسند أحمد ١٣٠/٤، ورواه الآجري في الشريعة، وقال محققه: إسناده صحيح، الشريعة ٢٨٦/١، وصححه الألباني في المشكاة ٣٦٢٢].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: خطبنا عمر بالجابية فقال: يا أيها الناس، إني قمت فيكم كمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا فقال: «أوصيكم بأصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يُستحلف، ويشهد الشاهد ولا يُستشهد، ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان، عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، ومن أراد بحبوحة الجنة فليزم الجماعة، من سرته حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن». [صحيح سنن الترمذي: ١٧٥٨].

خلاصة ما سبق

ويتبين من مجموع هذه الأحاديث وجوب ملازمة جماعة المسلمين، وأن اجتماعهم حق، وفيها بشرى هؤلاء المجتمعين بالجنة، والنجاة من النار، وقد فهم ذلك شراح هذه الأحاديث، فابن عبد البر رحمه الله بعد أن ساق شطرًا منها علق عليها بقوله: «الآثار المرفوعة في هذا الباب كلها تدل على أن مفارقة الجماعة وشق عصا المسلمين، والخلاف على السلطان المجتمع عليه، يريق الدم ويبيحه، ويوجب قتال من فعل ذلك، فإن قيل: كيف هذا وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد عصموا دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»، فمن قال: لا إله إلا الله حرم دمه؟ قيل لقائل ذلك: لو تدبرت قوله في الحديث: (إلا بحقها)، لعلمت أنه بخلاف ما ظننت، ألا ترى أن أبا بكر الصديق قد رد على عمر ما نزع به من هذا الحديث، وقال: من حقها الزكاة، ففهم عمر ذلك من قوله وانصرف إليه، وأجمع الصحابة عليه، فقاتلوا مانعي الزكاة كما قاتلوا أهل الردة، وسماهم بعضهم أهل ردة على الاتساع؛ لأنهم ارتدوا عن أداء الزكاة، ومعلوم مشهور عنهم أنهم ما قالوا: ما تركنا ديننا، ولكن شححنا على أموالنا، فكما جاز قتالهم عند جميع الصحابة على منعهم الزكاة، وكان ذلك عندهم في معنى قوله عليه السلام: (إلا بحقها)، فكذلك من شق عصا المسلمين وخالف إمام جماعتهم وفرّق كلمتهم؛ لأن الغرض الواجب اجتماع كلمة أهل دين المسلمين على من خالف دينهم من الكافرين، حتى تكون كلمتهم واحدة، وجماعتهم غير مفترقة، ومن الحقوق

لأن الدين النصيحة فلا يجوز لأحد من المسلمين أن يكتم النصيحة عن المسلمين إن كان قادراً عليها، سواء كانوا أبراراً أو فجاراً.

المريقة للدماء، المبيحة للقتال: الفساد في الأرض، وقتل النفس، وانتهاب الأهل والمال، والبغي على السلطان، والامتناع من حكمه، هذا كله داخل تحت قوله: (إلا بحقها)، كما يدخل في ذلك الزاني المحصن، وقاتل النفس بغير حق، والمرتد عن دينه. [التمهيد ٢١/٢٨٢].

وبالطبع هذا كلام يحتاج إلى تفصيل فليرجع إليه في مظانه من كلام أهل العلم.

وقد عقد الآجري بابًا عنونه بقوله: باب ذكر أمر النبي صلى الله عليه وسلم بلزوم الجماعة وتحذيره إياهم من الفرقة، ثم ساق بعضًا من الأحاديث الدالة على ذلك، وختم الكلام بقوله: «علامة من أراد الله به خيرًا: سلوك هذا الطريق؛ كتاب الله، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنة أصحابه رضي الله عنهم، ومن تبعهم بإحسان، وما كان عليه أئمة المسلمين في كل بلد، إلى آخر ما كان من العلماء مثل: الأوزاعي، وسفيان الثوري، ومالك بن أنس، والشافعي، وأحمد بن حنبل، والقاسم بن سلام، ومن كان على مثل طريقتهم، ومجانبة كل مذهب يذمه هؤلاء العلماء». [الشريعة ١/٣٠١].

قلت: ومن أراد أن تشمله رحمة الله فعليه بلزوم الجماعة، قال قتادة رحمه الله: «أهل رحمة الله أهل الجماعة»، وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم». [تفسير ابن كثير ٢/٦٢٧].

ويفهم هذا أيضًا من قول النبي صلى الله عليه وسلم كما سبق في بعض الأحاديث: «ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من ورائهم». قال الشيخ عبد المحسن البدر في شرحه لهذه الجملة: «ذكرت هذه الجملة بعد الخصلة الثالثة من الخصال الثلاث، وهي لزوم جماعة المسلمين، لبيان الفائدة التي يستفيدها الملازم للجماعة، وهي: أن يكون له حظ ونصيب من دعواتهم، والمعنى: أن دعوة المسلمين تحدق بهم وتحفهم من جميع جوانبهم، فمن لازم الجماعة كان له نصيب في دعوات المسلمين الصادرة من أفرادهم لعمومهم». [انظر رسائل الشيخ ٣/٤٦٣].

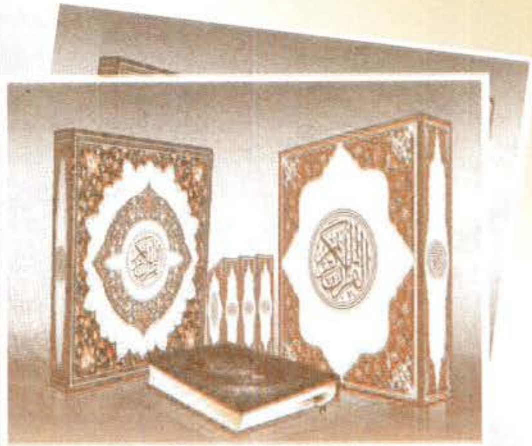
فعلى جميع المسلمين أن يتجردوا من كل هوًى وعصبية، وأن يكون منهجهم في العلم، والدعوة، والتربية والسلوك على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم، فهو الذي يجمع القلوب ويوحد الكلمة، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، كما قال الإمام مالك بن أنس، والأمة اليوم أحوج ما تكون إلى الاجتماع وجمع الكلمة على المنهج الرباني المحمدي، وهو لزوم الكتاب والسنة والسير وفق منهاج النبوة، ومن خالف هذا الطريق فهو متوعد بعذاب الجحيم، قال تعالى: «وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا» [النساء: ١١٥].

نسأل الله أن يهدينا جميعًا إلى صراطه المستقيم، والحمد لله رب العالمين.

على المسلمين أن يتجردوا من كل هوى وعصبية ، وأن يكون منهجهم في العلم والدعوة والتربية والسلوك متفقاً على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فهو الذي يجمع القلوب ، ويوحد الكلمة ، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

حصائد الألسنة

إعداد/ الشيخ مصطفى العدوي



بسم الله الرحمن الرحيم إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ » [آل عمران:١٠٢]، «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا» [النساء:١]، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا » [الأحزاب:٧٠-٧١].

إن اللسان شأنه عظيم وخطره جسيم، فهو سلاح ذو حدين، فقد يستخدمه العبد في الطعن وانتهاك الحرمات والخوض في الأعراض فيكون سبباً لهلاكه وتعاسته، وقد يستخدمه العبد في قراءة القرآن وذكر الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيكون سبباً لنجاته وسعادته.

اعتقاد العباد عبودية الله

إن مما يفارق به المسلمون غيرهم من أهل الملل والأديان أن أهل الإسلام يعتقدون اعتقاداً جازماً أنهم عبيد لله سبحانه وتعالى بكل معاني العبودية، فهم عبيد لله سبحانه وتعالى عبودية كونية قدرية، تجري عليهم أقدار الله سبحانه وتعالى وتنفذ فيهم، وكذلك هم عبيد لله سبحانه وتعالى عبادة شرعية دينية، فهم ممتثلون لكل ما أمرهم الله سبحانه وتعالى به، ومنتهون عما نهاهم الله سبحانه وتعالى عنه، فأهل الإسلام يفارقون غيرهم في هذا، فهم لا يعتقدون ما يعتقده غيرهم، بل عبيد لله سبحانه وتعالى في كل شيء، وأئمتهم من الأنبياء وأهل الفضل والصلاح يوصفون ويوسمون بهذه العبودية، فيقول الله سبحانه وتعالى عنهم: « وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ » [ص:٤٥] فوصفهم الله بأنهم عبيد له.

وكذلك يقول الله سبحانه عن عيسى عليه الصلاة والسلام: «إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ »[الزخرف:٥٩]، ويقول الله تعالى عن نبيه

محمد صلى الله عليه وسلم: «سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا» [الإسراء:١]، ويقول سبحانه عنه كذلك: «وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا» [الجن:١٩]، ويقول سبحانه كذلك: «وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ» [البقرة:٢٣].

فالمسلمون كلهم عبيد لله، عبيد لله عبودية كونية قدرية، وعبودية شرعية دينية، وليسوا بأحرار في أي شيء، بل هم مقيدون في كل شيء بما أمرهم الله به وبما نهاهم الله سبحانه وتعالى عنه، ومن ثم تضافرت الآيات لإثبات ذلك، قال الله سبحانه: «وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» [الذاريات:٥٦]، ويقول أهل الإيمان في صلواتهم: «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» [الفاتحة:٥]، فليس لنا أن نخرج أبداً عن هدي ربنا لنا، ولا عن هدي نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم لنا، بل نحن لله عبيد في كل شيء.

نصوص تبين خطورة اللسان

فإذا تقرر ما سبق (أننا عبيد لله) فإن كل جوارحنا معبدة لله سبحانه وتعالى، وليس عندنا في الإسلام ما يطلقون عليه حرية الكلمة، بل هو اصطلاح محدث باطل، فليس لنا في الإسلام حرية الكلمة، فكلماتنا في الإسلام مقيدة، فلا تتكلم كما تشاء وتهوى، بل لك شرع تُضبط به، بل ليس لك في الإسلام أن تفكر كما تريد؛ فإن الله سبحانه وتعالى ضبط لنا جوارحنا حتى قلوبنا، قال سبحانه: «إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا» [الإسراء:٣٦]، وقال الله سبحانه: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ» [الحجرات:١٢]، فنحن مقيدون في كل شيء، وعبيد لله سبحانه وتعالى في كل شيء.

فألسنتا معبدة لله سبحانه، لا يترك لها الزمام والعنان تصول وتجول كيف شاءت، وحديثنا في يومنا هذا عنها؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم حذرنا أشد التحذير من ألسنتنا، وقد جاءت نصوص كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تضبط لنا الألسن، قال الله جل ذكره: «قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ» [المؤمنون:١-٣]، فليس لك أن تلغو وتتكلم كما تشاء. ووصف الله أهل الإيمان بقوله: «وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا» [الفرقان:٧٢]، وقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت)، وقال النبي عليه الصلاة والسلام كذلك: (من صمت نجا)، وقال: (إن الله كره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال)(توثيق)، وقال ربنا جل ذكره: «لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ» [النساء:١١٤].

فهذه نصوص تذم كثرة الكلام، فليس لك تحت شعار حرية الكلمة أن تكثر من الكلام، بل الكثرة من الكلام مذمومة لهذه النصوص، ثم إن الكلمات مسطرة مسجلة، قال سبحانه: «مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ» [ق:١٨]، وقال الحسن البصري في تفسيرها: (حتى قول الرجل لامرأته أو لفتاته وجاريته: ناوليني الطعام ما بال الطعام نقص فيه الملح، ناوليني الشراب، فكل هذا يسطر في الصحائف)، وقال سبحانه: «وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا» [الكهف:٤٩]، وقال سبحانه: «وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ» [القمر:٥٢-٥٣]، وقال سبحانه: «أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ» [المجادلة:٦]، وقال سبحانه: «إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» [الجاثية:٢٩]، وقال سبحانه: «فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ» [الزلزلة:٧-٨]، فالكل يسطر، والكل يسجل، والكل يثبت.

ثم إن من الكلمات كلمات تردي صاحبها في جهنم -والعياذ بالله- وهو لا يشعر، قال النبي عليه الصلاة والسلام: (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله عز وجل لا يظن أنها تبلغ ما بلغت يرفعه الله بها درجات، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله عز وجل لا يظن أنها تبلغ ما بلغت يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب)، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه -أي: لسانه وفرجه- أضمن له الجنة)، وقال عليه الصلاة والسلام: (وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم)، وقال صلوات الله وسلامه عليه لـ عائشة لما تكلمت بكلمة في شأن صفية بنت حيي رضي الله عنها مشيرة بيدها إلى قصرها:: (لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته). (سنن أبي داود وصححه الألباني).

فكثير من الكلمات تردي صاحبها في جهنم وهو لا يشعر، وكثير من الكلمات تحبط أعمال قائلها وهو لا يشعر، إذ يكون الرجل مصلياً صائماً ذاكراً لله كثيراً فيتكلم بكلمات تذهب بثواب الصلاة وبثواب الصيام وبثواب الذكر، خاصة تلك الكلمات التي فيها اعتراض على الشرع، وتلك الكلمات التي فيها تجريح للأشخاص وخوض في أعراضهم، فهي كلمات لا تدمر من قيلت في حقه فحسب، بل تدمر القائل كذلك، وتدميرها للقائل أشد من تدميرها لمن قيلت فيه.

قال تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ

﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور:٢٣-٢٥]

ثم جاء قوله تعالى: «الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ» [النور:٢٦]، ومعنى (وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ) على رأي جمهور المفسرين: أن الكلمات الخبيثة تصدر من الأشخاص الخبيثين، والكلمات الطيبة تصدر من الأشخاص الطيبين، فالطيبون لا يصدر منهم إلا كل طيب، ولا يصدر منهم الشر، والخبيثون يصدر منهم التجريح، ويصدر منهم التشهير، وتصدر منهم الفضائح، فهم بها أولى وهي بهم أليق.

فالمسلم عليه أن يحفظ لسانه فيما يتعلق بأعراض المسلمين، وقد ثبت في نصوص عدة عن النبي الأمين محمد عليه الصلاة والسلام ما حاصله وفحواه أنه يجب على المسلم وجوباً أن يستر أخاه المسلم، إلا فيما دعت الضرورة إليه، كاستفتاء أو استنصاح، لكن ما سوى ذلك يجب على المسلم أن يستر أخاه المسلم، فإن هو فعل ذلك ستره الله في الدنيا والآخرة، وإن هو لم يفعل تتبعه الله حتى يفضحه في قعر بيته، قال النبي صلوات الله وسلامه عليه: (من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة)صحيح مسلم .

وفي الحديث الآخر: (يا معشرَ من آمن بلسانِه ولم يدخلِ الإيمانُ في قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتَبعوا عوراتِهم فإنَّه من يتَّبِعْ عورةَ أخيه المسلم يتبَعَ اللهُ عورتَه ومن يتبَعِ اللهُ عورتَه يفضَحْه ولو كان في جَوفِ بيتِه) سنن أبي داود وصححه الألباني.

وقواعد الشرع لذلك شاهدة، وهي تشهد لشيء ألا وهو أن الجزاء من جنس العمل، فمن ستر المسلمين ستره الله، ومن فضح المسلمين تتبع الله عورته حتى يفضح.

الإعراض عن كثرة الكلام والاشتغال بالذكر

لذلك جدير بكل مسلم وحري بكل مسلم أن يمسك لسانه؛ فإن كثرة الكلام تجلب سخط الرب عليه، إذا كان فيه تعلق بالأعراض وانتهاك للحرمات.

وكثرة الكلام وكثرة الخوض شأن الثرثارين الذين سقطت هيبتهم وذهب وقارهم، فالثرثار الذي يتكلم كثيراً ساقط الهيبة ذاهب الوقار، قال النبي عليه الصلاة والسلام: (وإن من أبغضكم إلي الثرثارون المتشدقون المتفيقهون)، (صحيح الجامع رقم: ٢٢٠١)

والثرثار: هو كثير الكلام، كما فسره جمهور العلماء.

فيا عبد الله لا تتكلم كثيراً، ولا تخض في الأعراض، فاللغو مسطر عليك في صحائفك، مسود لتلك الصحائف، فلا تكثر الكلام بغير ذكر الله، وانظر إلى حال أهل الفضل وحال أهل الصلاح شغلوا بالذكر عن قيل وقال، وشُغلوا بالذكر عن الخوض في الأعراض، فلا يصدر منهم إلا كل طيب، فيغنمون الغنائم بذلك، كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: (الكلمة الطيبة صدقة)، فشغلوا بالقول الطيب لما علموا أنه يصعد إلى الله فتفتح له أبواب السماء، كما قال تعالى: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ» [فاطر:١٠]، فالكلم الطيب يصعد إلى ربنا سبحانه، والله سبحانه يرفع العمل الصالح إليه.

فجدير بك -يا عبد الله- أن تطيب لسانك دائماً بذكر الله وبطيب الكلام، وقد رأينا أقواماً يفترض فيهم الصلاح تركوا ذكر الله، وتركوا تلاوة القرآن، فاتجهوا إلى الخوض في الأعراض وأنساهم الشيطان ذكر الله لما شغلوا بتتبع عيوب الناس والوقوف على عوراتهم، وقد قال الله سبحانه في شأن أهل الكفر الذين اقتبس كثير من المسلمين منهم بعض الأخلاق الرذيلة: «فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ» [المؤمنون:١١٠]، فلما اتخذ قوم آخرين سخرياً أنسوهم ذكر الله، وحينئذ شغلوا بعيوب الناس عن عيوب أنفسهم، كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام: (يبصر أحدكم القذى في عين أخيه وينسى الجذع في عينه)، فنسي أقوام تهذيب أنفسهم، ونسي أقوام تلاوة كتاب ربهم، ونسي أقوام ذكر الله، فأوقعهم الشيطان في حبائله، وأوقعهم في القيل والقال، وفي انتهاك الأعراض، وفي تتبع العورات والعياذ بالله.

فجدير بنا -معشر المسلمين- أن نقف مع أمر الله لنا، وأمر حبيبنا محمد عليه الصلاة والسلام لنا، ولننشغل بالذكر، ولننشغل بالأمر بالمعروف وبالنهي عن المنكر كما علمنا إياه رسولنا محمد عليه أفضل صلاة وأتم سلام، ولننشغل بذلك عن تتبع العورات وعن فضائح المسلمين، فرطب اللسان بذكر الله حتى تبيض صحائفك يوم القيامة فترتفع درجاتك، وهذا هو فيصل ما بين أهل الإسلام ومن أطلق عليهم الديمقراطيون، وهم الكذابون البعيدون عن الإسلام، فنحن في الإسلام ليس لنا الخيار، إنما نحن في الإسلام عبيد لله، لا نخوض بالألسن كما نحب، ولا نتطاول بالألسن كما نشتهي، بل لنا دين ولنا شرع يوجهنا، ولنا نبي يعلمنا ويأمرنا وينهانا، فلا يسعنا أبداً بحال من الأحوال الخروج عن هذا الدين إلا -عياذاً بالله- إذا كفر شخص، نسأل الله الثبات حتى الممات.

الأثر الناتج عن استشعار العبد رقابة الله

يجب علينا -معشر الإخوان- أن نقف مع أنفسنا ونسألها: ما هو الحامل لنا على الخوض بألسنتنا فيما لا يعنينا؛ فقد روي عن رسول الله صلى الله

عليه وسلم أنه قال: (كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع)، ولنسأل أنفسنا كذلك: هل نحن من أهل الامتثال بتعليم نبينا ابن عمه الحبر الكريم عبد الله بن عباس حين علمه فقال له: (احرص على ما ينفعك)؟ وهل نحن نحرص دائماً على ما ينفعنا؟ وهل حرصنا على النافع، أم حرصنا على التمزيق وتشتيت الأعراض وانتهاك الحرمات؟ فكل منا عليه أن يقف ويسأل نفسه: ما هو الحامل لي على إطلاق العنان للسان بالكلام؟ إذ قد رأينا في كتاب الله أن الرقابة علينا شديدة، ولكن من ينسى مراقبة الله له لابد أن يقع في الزيغ والضلال، ومن يقل يقينه ويضعف إيمانه برقابة الله سبحانه وتعالى عليه تشرد منه الشوارد، وتخرج منه الأوابد والمهلكات، ففي كتاب ربنا تختم مئات من الآيات -بل إن شئت قلت الآلاف- بمراقبة الله لك.

كقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) فهذه الفقرة ختمت بها عشرات الآيات، فالله سميع يسمع كلامك، ويرى مقامك، وقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) فيه أن الله يعلم أقوالك خبير بأفعالك، وقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) فيه نفس المعنى، وفي قوله تعالى: «فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ» [البقرة:١٥٨] ما يفيد أن الله يعلم أحوالك، وفي قوله تعالى: «مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ» [المجادلة:٧] ما يدل على هذا المعنى، وفي قوله تعالى: «قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ» [المجادلة:١] وهي تسر بالحديث إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، ما يشعرك بأن الله سبحانه يسمع كلامك، ويرى مقامك، ويطلع على ما في نفسك، وقال تعالى: «وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا» [الإسراء:٣٦]، والسؤال عنه يتأتى يقيناً بعد معرفته، والفؤاد: هو القلب.

فالله سبحانه وتعالى يعلم ما فيه القلوب، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ولو قرأت سورة واحدة من كتاب الله لظهرت لك فيها مئات من المعاني كلها تدل على إحكام مراقبة الله سبحانه وتعالى عليك، فهو رقيب عليك، وهو حسيب عليك، فهو رقيب حسيب سبحانه وتعالى، فما بالك تطلق للسان العنان في الكلام، وما بالك تطلق للقلب الوساوس والشكوك والظنون، فالله سبحانه عنده السر كالعلن، فعنده سبحانه السر الذي في قلبك كالعلن البادي من لسانك، فكله عند الله سواء، «أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ» [الملك:١٤]، فإذا كان ذلك كذلك فاترك ما لا نفع فيه لك، واترك الخوض في الأعراض، واترك التشهير بالمسلمين، وأمسك عليك لسانك، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

آثار فضول الخلطة والمجالسة

لا تكثر من المجالسة مع الناس؛ فإن فضول المجالسات من ورائها الشرور، وطول المجالسات مع الناس حتى مع الزوجات والأولاد يجرك إلى الإثم، ويجرك إلى القيل والقال، ألا ترى إلى الصحابي الكريم حنظلة لما خرج ذات يوم يشكو أمره إلى رسول الله، فقد خرج من البيت منكراً لقلبه لا يرضى عن حال قلبه، فلقيه أبو بكر فقال: إلى أين يا حنظلة؟ قال معترفاً ومقراً بذنبه: نافق حنظلة قال له: ولم ذاك؟ قال: يا أبا بكر: نكون عند رسول الله عليه الصلاة والسلام فيحدثنا عن الجنة والنار كأنها رأي عين، فإذا خرجنا ورجعنا إلى بيوتنا عافسنا الأزواج، وعافسنا الضيعات والأولاد، فنسينا كثيراً مما ذكرنا به.

فقال أبو بكر: وأنا والذي نفسي بيده، فانطلقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عليه الصلاة والسلام: (والذي نفسي بيده لو تدومون على ما أنتم عليه عندي من الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن -يا حنظلة- ساعة وساعة) صحيح مسلم ٢٧٥٠.

فيا ليتنا وقفنا مع حديث رسولنا ساعة وساعة، ولكننا أضعنا الساعات كلها مع الأهل والأصدقاء والخلان والأقارب، ولم نترك ساعة نخلو فيها بربنا نعترف له بذنوبنا، ونرجع إليه عن معصية اقترفناها.

والحمد لله رب العالمين.

اعتذار

يعتذر رئيس التحرير عن كتابة كلمة التحرير هذا الشهر، وبإذن الله تعالى سيعاود الكتابة الشهر القادم إن شاء الله تعالى.

رئيس التحرير

تفسير سورة فصلت

الحلقة الأولى

«حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا
لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ
قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ
فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ
إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٌ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ
ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ» [فصلت: ١- ٧].

إعداد/ د. عبد العظيم بدوي

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

بين يدي السورة:

تُعرف هذه السورة بسورة فصلت؛ لقوله تعالى في مطلعها: «كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ»، وتسمى سورة السجدة، تمييزًا لها عن سورة السجدة المعروفة. وهي سورة مكية، شأنها شأن السور المكية في الاهتمام بترسيخ العقيدة، وبيان أصول الدين وأركان الإيمان، وقد ركّزت على الأصول الثلاثة، وهي التوحيد، والرسالة، والبعث بعد الموت، وأضافت إلى ذلك حكم الدعوة، وفضلها، وأسلوبها، وأخلاق الداعية.

«حم» حرفان من حروف الهجاء، وقد أشبعنا القول في سر وجود هذه الحروف في أوائل السور.

القرآن الكريم رحمة:

«تَنْزِيلٌ» مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هذا تنزيل، أو على أنه مبتدأ، وخبره «كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ». والمعنى: هذا الكتاب العربي المبين «تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، وفي تخصيص هذين الاسمين بالذكر إشارة إلى أن التنزيل رحمة من الرحمن الرحيم، ونعمة من أعظم نعم رب العالمين، ولذلك لما ذكر الله تعالى الثقلين-الإنس والجن- بنعمه عليهما، استفتح السورة باسمه الرحمن، وابتدأ بنعمة تعليم القرآن، فقال تعالى: «ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ» [الرحمن: ١- ٢]، فمن رحمة الله تعالى بعباده أن علمهم القرآن، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: «وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ» [القمر: ١٧]، قال: لولا أن الله يسره ما نطق به لسان؛ ف «ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَا» [الكهف: ١].

«كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ»: فصّل الله تعالى فيه الحلال والحرام، والأمر والنهي، والوعد والوعيد، وفصّل القصص والوعظ والأخبار، وغير ذلك مما تضمنه هذا الكتاب المبارك، كما قال تعالى: «وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا» [الإسراء: ١٢].

«قُرْآنًا عَرَبِيًّا» أي حال كونه «قُرْآنًا عَرَبِيًّا»، كما قال تعالى: «إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ» [يوسف: ٢]. وفي اختيار اللغة العربية لتنزيل الكتاب بها إشارة إلى فضلها، وأنها أشرف اللغات وأفضلها على الإطلاق.

وقوله تعالى: «لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»: خصَّ الله تعالى

الذين يعلمون بالذكر؛ لأنهم الذين يؤمنون بهذا الكتاب ويتبعونه، كما قال تعالى: «وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ» [سبأ: ٦]، وقال تعالى: «وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ» [الحج: ٥٤]، أما الذين لا يعلمون فهم به مكذبون، كما قال تعالى: «بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ» [يونس: ٣٩].

«بَشِيرًا وَنَذِيرًا» يعني أن القرآن الكريم بشير لمن آمن به وصدقه واتبعه، ونذير لمن كذب به وصدَّ عنه، كما قال تعالى: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» [الإسراء: ٩- ١٠]. وقال تعالى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا» [الكهف: ١- ٥].

موقف أكثر الناس من القرآن الكريم:

ومع أن القرآن من رحمة الله، وفصَّل للناس كل شيء، إلا أن أكثر الناس لم يقبلوه، ولم يهتدوا بهديه، كما قال تعالى: «فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ»، نفى عنهم السماع؛ لأنهم لم ينتفعوا بما سمعوا، وإلا فقد سمعوا بآذانهم، وقامت عليهم الحجة، فقد بلَّغ الرسول صلى الله عليه وسلم ما أنزل إليه من ربه، وقرأه عليهم، ولكنهم لم ينتفعوا بما سمعوا، كما قال تعالى: «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ» [الأنفال: ٢٢- ٢٣]، أي لنفعهم بما سمعوا، ولكن لم يعلم الله في قلوبهم خيرا فختم على قلوبهم وسمعهم، «جَزَاءً وِفَاقًا» [النبأ: ٢٦].

«وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ»:

هذا القول منهم كالاعتذار عن عدم سماعهم، «وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ»: الأكنة الأغطية، كما قال تعالى: «وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ» [البقرة: ٨٨] أي: مغلفة في أكنة، فهي مغلقة، كما قال تعالى: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا» [محمد: ٢٤]، فلا تعي شيئًا. وقولهم «وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ» أي ثقل وصمم، فلا نسمع شيئًا، «وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ» يحجز بيننا وبينك، فأنى نسمع ونعي وهذه حالنا؟!

وهل كانوا صادقين في وصفهم أنفسهم بهذا الوصف أم كاذبين؟

كانوا صادقين في الوصف، كاذبين في الاعتذار؛ لأن الله تعالى قال: «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ» [البقرة: ٧]، ولكن هذا الختم إنما كان بعد أن عطلوا هم هذه الحواس، ولم يستعملوها فيما خلقت له، من التعرف على الله تعالى، بالاستماع لآياته المقروءة، والنظر في آياته المنظورة، فعاقبهم الله تعالى، فختم عليها، فلا ينتفعون بها، كما قال تعالى: «وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» [الصف: ٥]، وقال تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ» [المنافقون: ٣].

وقولهم: «فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ»: يقولون: ما دام الحال كما ذكرنا، فاعمل أنت على دينك وطريقتك التي اخترتها، فإنا عاملون على ديننا وطريقتنا، فكما لن تترك أنت دينك، فكذلك نحن، لن نترك ديننا.

ومع هذا، فقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يستمر في دعوتهم، وأن لا يترك تذكيرهم، وأن لا ييأس من إيمانهم؛ معلمًا للدعاة بعده صلى الله عليه وسلم أن لا ييأسوا من الناس وإن صرحوا بعدم القبول والاستجابة والاتباع، ولكن بالرفق واللين، والحكمة والموعظة الحسنة. قال تعالى: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ»:

يقول تعالى: قل لهم يا نبينا، ما هذا الحاجز الذي جعلتموه بيني وبينكم، والحال أنني بشر مثلكم، لا ملكًا، ولا جنيًا، وإنما أنا بشر مثلكم، وهذه المثلية تقتضي أن تسمعون، وأن تؤمنوا لي ولا تكذبون، بعد ما قامت الأدلة الدالة على صدقي أنه «يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ»، وإذ الأمر كذلك

«فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ» يعني اسلكوا السبيل الموصل إليه، وهو صراطه المستقيم الذي رسمه لعباده، وأمرهم بسلوكه، فقال: «وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» [الأنعام: ١٥٣]، «فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ» في الحال والمستقبل بعبادته وحده لا شريك له، «وَاسْتَغْفِرُوهُ» مما كان منكم في الماضي من الكفر والشرك، وهذا الأمر كقوله تعالى: «وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ» [هود: ٣].

فائدة : في الجمع بين الأمر بالاستقامة والأمر بالاستغفار:

وفي الجمع بين الأمر بالاستقامة والأمر بالاستغفار إشارة إلى أن الإنسان مهما اجتهد في الاستقامة فلا يسلم من الزلل والخطأ، فعليه أن يستغفر الله ويتوب إليه، كما قال تعالى في حق المتقين: «وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ» [آل عمران: ١٣٥].

ومهما اجتهد الإنسان في الطاعات والقربات فهو مقصّر في حق الله، ومحتاج إلى أن يستغفر الله، ولذلك قال تعالى: «فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» [المزمل: ٢٠].

فالإنسان محتاج إلى ملازمة الاستغفار مما يكون منه من الزلل، ومما يكون منه من التقصير في حق الله؛ لأن ما يقوم به من حق الله، دون ما يجب عليه لله سبحانه.

ثم توعد الله تعالى من أصر على الشرك بعد هذا الأمر بالتوحيد، فقال سبحانه: «وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ»: «وَوَيْلٌ» كلمة زجر ووعيد، كثر مجيئها في القرآن الكريم. وقيل إن الويل وادٍ في جهنم، تستغيث جهنم بالله من شره، فكيف بساكنه؟!

ثم وصف الله تعالى المشركين بقوله: «الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ»، فهم لا يوقنون بلقاء الله، ولا يؤدون حق الله في مال الله؛ لأن الإيمان بلقاء الله المفضي إلى الجزاء على الأعمال، هو الذي يدفع الإنسان إلى فعل الخير، ليجد بره وذخره وثوابه عند الله، كما قال تعالى: «وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا» [الإنسان: ٨- ١٢].

أما المكذبون بلقاء الله فإنهم لا يطعمون الطعام، ولا يحضون عليه، كما قال تعالى: «أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ» [الماعون: ١- ٣]، وقال تعالى: «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ» [المدثر: ٣٨- ٤٦].

وعلى طريقة القرآن الكريم في الجمع بين الترهيب والترغيب، لما توعد الله المشركين أتبعه بما وعد به المؤمنين، فقال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ»: يعني: إن الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، ومنها إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، كما صرح بذلك ربنا سبحانه في قوله: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» [البقرة: ٢٧٧]، ومعنى قوله تعالى: «فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ» [التين ٦]، أي أجر دائم لا ينقطع، والمراد به الجنة، لأن الجنة دائمة، لا تفنى ولا تبيد، كما قال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ» [البينة: ٧- ٨].

نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم ومعهم بفضله وكرمه، وجوده ومنه.

وللحديث بقية، إن شاء الله.

والحمد لله رب العالمين.

الدعوة إلى وحدة الأمة وجمع الكلمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعدُ:

فإن الوحدة بين المسلمين أمل تهفو إليه النفوس، وترتاح لتحقيقه القلوب، وهي مطلب شرعي جليل القدر عظيم الشأن، ومن أجل المساعي التي يسعى إليه المصلحون، وهو عمل لا يعرف قدره إلا من اصطلى بنار الفرقة وآلامها، فالأمة اليوم كم عانت من التنازع والتفرق والتشتت الذي سرى في كيانها ودبَّ في أركانها.

والواقع الذي يعيشه المسلمون اليوم يستوجب من كل مسلم يخشى الله ويتقيه أن يسعى سعيًا جادًا حثيثًا لتحقيقها على مستوى الفرد والأمة.

إعداد/ معاوية محمد هيكل

لأن الفُرقة هي التي مكّنت الأعداء من رقابنا، وأسبابها عديدة، فلا ينبغي أن نجعل الخلاف بيننا في الأقوال والمذاهب الفقهية حائلاً يحول بيننا وبين تحقيق الوحدة الإسلامية والأخوة الإيمانية، فمصلحة الائتلاف والاجتماع مصلحة كلية لا بد أن تأتي في مقدمة الأولويات، فالمصالح العامة تتبعها الخاصة.

الائتلاف من أعظم النعم

لقد امتن الله تعالى على عباده بنعمة الائتلاف، فقال سبحانه وتعالى: «وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا» [آل عمران: ١٠٣].

وبيَّن سبحانه أنها من أعظم أسباب النصر، فقال عز من قائل: «هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» [الأنفال: ٦٢، ٦٣]، فالتأييد حدث بأمر رباني، وأمر معنوي، وهو اجتماع المسلمين وتآلف قلوبهم، والواجب على المسلمين تحقيق هذه الوحدة الإسلامية؛ لأنها من مقتضيات الإيمان.

إن رابطة الدين تتلاشى أمامها رابطة النسب والعصبية؛ لأن التفرق من خصائص الجاهلية، ولن يُؤتى المسلمون من قلة عددهم، ولكن يؤتون من قبل ذنوبهم، ومن أعظمها: التفرق والاختلاف، قال الله تعالى: «وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» [الأنفال: ٤٦].

ولقد كان من أعظم الدروس التي استفادها المسلمون يوم بدر وأحد هو درس الوحدة والائتلاف، ونبذ الفرقة والاختلاف، ففي غزوة بدر لما اختلف الصحابة في أمر الغنائم أنزل الله عز وجل: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ» [الأنفال: ١] «أي: أصلحوا ما بينكم من التشاحن والتقاطع والتدابر بالتوادد والتحاب والتواصل، فبذلك تجتمع كلمتكم، ويزول ما يحصل بسبب التقاطع والتخاصم والتشاجر والتنازع، ويدخل في إصلاح ذات البين: تحسين الخلق لهم والعفو عن المسيئين منهم، فإنه بذلك يزول كثير مما يكون في القلوب من البغضاء والتدابر». اهـ. [تفسير السعدي: ٣٤٦].

ويوم أحد وبعد أن مُني المسلمون بالهزيمة؛ بسبب مخالفتهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الصحابة رضي الله عنهم: «أنى هذا»؟ أي: من أين أصابنا ما أصابنا وهُزمنا؟ أخبرهم ربنا فقال: «قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ» [آل: ١٦٥] حين تنازعتم وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، فعودوا على أنفسكم باللوم، واحذروا من الأسباب المهلكة.

وفي بني قريظة لما قال النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة». فمن الصحابة من صلى في الطريق عندما حان وقت العصر، فالصلاة لميقاتها، ومنهم من أخرها حتى صلاها بعد وقتها في بني قريظة؛ أخذًا منه بظاهر النص، فلم يعنِّف النبي صلى الله عليه وسلم أحدًا من الفريقين، بل استأصل مادة الخلاف والنزاع وصفهم جميعًا صفًا واحدًا كالبنيان المرصوص لقتال العدو.

وهذا يؤصل أصلاً شرعيًا مهمًا- كما قرره الفقهاء-، وهو أن الخلاف في الفهم في مسائل الفروع لا ينبغي

أن يؤدي إلى التنازع والفُرقة؛ لأن كلا الفريقين مجتهد ويترددان بين أجر وأجرين، فكلاهما محسن.

ولا يمكن بأي حال من الأحوال القضاء أبدًا على الاختلاف في مسائل الفروع ما دام دليلها ظنيًا محتملاً؛ إذ لو أمكن ذلك لكان أَوْلى العصور به عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكان أَوْلى الناس بألا يختلفوا هم أصحابه، فما بالهم اختلفوا مع ذلك كما قد رأيت؟!

الفرقة أمر قدري يجب دفعها بالأمر الشرعي

تضافرت نصوص الشريعة التي تأمر الناس بالاعتصام بالسنة، وتوجب عليهم لزوم الجماعة، وتحذرهم من الشذوذ والفرقة، وإن كانت الفرقة أمرًا قدريًا كونيًا إلا أننا مأمورون بقطع مادتها، وإنهاء أسبابها، وبتر دواعيها، واستئصال شأفتها.

قال الله تعالى: «وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ» [هود: ١١٨، ١١٩]، اختلف المفسرون من السلف في هذه الآية تبعًا للأمر القدري والشرعي، قال ابن عباس والحسن، رضي الله عنهما: أي: للاختلاف خلقهم.

وروى ابن وهب عن طاووس: أن رجلين اختصما إليه فأكثرا، فقال طاووس: اختلفتما وأكثرتما، فقال أحد الرجلين: لذلك خلقنا. فقال طاووس: كذبت. فقال: أليس الله يقول: «وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ» [هود: ١١٩]، قال: لم يخلقهم ليختلفوا، ولكن خلقهم للجماعة والرحمة، وقيل: للرحمة والاختلاف.

وقال الحسن: الناس مختلفون على أديان شتى، إلا من رحم ربك، فمن رحم ربك غير مختلف، فقيل له: لذلك خلقهم؟ قال: خلق هؤلاء لجنته، وخلق هؤلاء لناره، وخلق هؤلاء لعذابه، وهؤلاء لرحمته. [انظر: تفسير ابن كثير ٧/ ٤٩٠].

ولا تعارض بين الأقوال، ففريق تكلم بالأمر الكوني القدري، وفريق تكلم بالأمر الشرعي، والفريق الثالث جمع بين القولين، فأهل طاعة الله المنفذون لأمره الشرعي هم أهل رحمته سبحانه، وأما أهل الاختلاف المفارقون للحق الذي شرعه فهم لم يخرجوا عن قضائه وقدره وحكمته الكونية كما هو معلوم ومقرر، فلا يجوز الاحتجاج بالقدر في المعائب، ولكن يحتج به في المصائب؛ إذ المعائب نحن منهيون عنها شرعًا.

حتمية الاجتماع والائتلاف بين المسلمين

الاجتماع والائتلاف من أعظم الأمور التي أوجبها الله ورسوله، فقد أمر الله عباده بالاجتماع والائتلاف ونبذ الفرقة والاختلاف، فقال تعالى: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا» [آل عمران: ١٠٣]، كما حذرهم من الفرقة فقال سبحانه: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ» [آل عمران: ١٠٥، ١٠٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: تبيض وجوه أهل السنة، وتسودّ وجوه أهل البدعة والفُرقة، وقال الله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» [الأنعام: ١٥٩].

وهذه الآية كما قرر الإمام ابن كثير -رحمه الله- عامة في كل من فارق دين الله، وكان مخالفًا له بجعله الدين مللاً ونحلاً، فبهذا العمل يكون قد لحقته البراءة من الله ورسوله. اهـ.

ودلت الآية على أن الدين يأمر بالاجتماع وينهى عن التفرق والاختلاف في أصل الدين وسائر مسائله الأصولية والفرعية، وهذا تحذير من الله عز وجل لهذه الأمة حتى لا تسلك مسلك الأمم السابقة الذين جاءهم الدين والبينات الموجب لاجتماعهم، فتفرقوا واختلفوا وصاروا شيعًا وأحزابًا، والسنة النبوية كذلك تعظم شأن الوحدة والاعتصام، وتحذر من الفرقة والاختلاف.

ومن ذلك ما رواه مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا ويكره لكم ثلاثًا، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال».

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أوصيكم بأصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يُستحلف، ويشهد الشاهد ولا يُستشهد، ألا لا يخلون رجل بامرأةٍ إلا ثالثهما الشيطان، عليكم بالجماعة وإياكم والفُرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو مع الاثنين أبعد، ومن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة». [رواه الإمام أحمد، والترمذي، والحاكم، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم». رواه أبو داود وابن ماجه وأحمد عن عبد الله بن عمر.

ومما يدل على مراعاة أمر الوحدة الظاهرة وأثرها على الأعمال القلبية الباطنة قول النبي صلى الله عليه وسلم وهو يسوّي صفوف أصحابه في الصلاة، قائلاً:

«أقيموا صفوفكم... (ثلاثًا)، فوالله لتقيمن صفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم». [رواه أبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع، والسلسلة الصحيحة].

وروى مسلم بسنده أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يمسح المناكب في الصلاة ويقول: «استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم».

ومن أجل هذا التوجيه النبوي الكريم، وبيان العلاقة الوطيدة بين الظاهر والباطن، بادر الصحابة وامتثلوا واستجابوا لأمر النبي صلى الله عليه وسلم حتى قال النعمان بن بشير رضي الله عنه: «فرأيت الرجل يلصق منكبه بمنكب صاحبه، وكعبه بكعبه».

ومن هذا الباب أيضًا ما رواه أحمد وغيره بسند صحيح عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه قال: كان الناس إذا نزلوا منزلاً تفرقوا في الشعاب والأودية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما ذلكم من الشيطان». فكانوا بعد ذلك إذا نزلوا منزلاً ضم بعضهم إلى بعض حتى إنك تقول لو بَسَطْتَ عليهم كساءً لعمهم.

والذي يتأمل واقعنا المعاصر اليوم يرى بين أصحاب المنهج الواحد تفرقًا وتمزقًا وشحناء وبغضاء حتى أصبح الولاء على الأسماء والأشخاص واللافتات، مما انعكس ذلك بالسلب على عقيدة الأخوة والرابطة الإيمانية، فاهتزت علائق الأفراد وساد سوء الظن، وكثرت الغيبة والنميمة وغاب العدل والإنصاف، وأُلصقت التهم بالأخيار؛ مخالفين بذلك ميثاق الخُلق الإسلامي القويم، وبذلك سلم منا أعداء الدين، ولم يسلم منا إخواننا في الدين.

ميزان وضابط

الواجب علينا شرعًا أن نزن تصرفاتنا بميزان الشرع، وأن نعيد النظر من جديد من أسلوب معاملاتنا وأسس الحوار وآدابه فيما بيننا، فمن استمسك بدين الله أحببناه وواليناه، ومن وقع منه بعض الأخطاء والمخالفات التي لا تُخرجه عن دائرة الإسلام، فإن عقد الأخوة لا يزال باقيًا له مع استمرار النصح له دائمًا، وبغض ما يأتيه من مخالفات، فنحبه من وجه، ونبغضه من وجه آخر، وهذا هو المنهج الصحيح لقاعدة الحب والبُغض، وأساسها قول الله عز وجل: «وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» [التوبة: ١٠٢].

فمن أخطأ أو زل فلا ينبغي أن نبغضه أو نذمه بإطلاق كما فعلت الخوارج، فكفروا مرتكب الكبائر، كذلك لا نمدحه بإطلاق ولا نرفعه لدرجة جبريل وميكائيل، عليهما السلام، وأبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، كما فعلت المرجئة.

وإنما دين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه، وأقوال أئمة السلف في هذا الباب توضح بجلاءٍ لا خفاء فيه هذا المبدأ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولا منافاة بين أن يكون الشخص الواحد يرحم ويحب من وجه، ويُبغض ويعذب من وجه آخر».

ثم قال: «وإنه كثيرًا ما يجتمع في الفعل الواحد أو في الشخص الواحد الأمران: كالذم والنهي، والعقاب قد يتوجه إلى ما تضمنه أحدهما فلا يغفل عما فيه من النوع الآخر، وقد يُمدح الرجل بترك بعض السيئات البدعية الفجورية، ولكن يسلب مع ذلك ما مدح به غيره على فعل بعض الحسنات السنية، فهذا طريق الموازنة والمعادلة، ومن سلكه كان قائمًا بالقسط الذي أنزل الله له الميزان». [مجموع الفتاوى: ١٠/٣٦٦].

ثم قال: «ومن سلك طريق الاعتدال عظم من يستحق التعظيم وأحبه ووالاه وأعطى الحق حقه، فيعظم الحق ويرحم الخلق، ويعلم أن الرجل الواحد تكون له حسنات وسيئات فيُحمد ويذم ويثاب ويعاقب، ويحب من وجه، ويبغض من وجه، هذا هو منهج أهل السنة والجماعة خلافًا للخوارج والمعتزلة ومن وافقهم». [منهاج السنة النبوية ٤/٥٤٣].

سلامة المنهج أساس الوحدة

إن من أهم أسباب فشل محاولات توحيد الصف: غياب صحة المعتقد وسلامة المنهج والاختلاف المذموم والتعصب للجماعة والحزب، لذلك فدعوتنا إلى الائتلاف والوحدة بين المسلمين لا تكون أبدًا على حساب المنهج السليم ولا على حساب التفريط في قواعد الدين وأصوله؛ لأن حرصنا على الائتلاف ووحدة الصف لا قيمة له ولا معنى إن نحن فرطنا في العقيدة، أو تساهلنا بما يؤدي إلى تمييع أصولها، ولو حدث ذلك لوقعنا في الشقاق والفرقة من حيث أردنا الوحدة والائتلاف، ولِمَ لا والتوحيد أساس الوحدة؟!

ولذلك فنحن حينما ندعو للائتلاف لا نعني الائتلاف مع أصحاب المذاهب الضالة والمنحرفة عن منهج أهل السنة من الخوارج والروافض، والقدرية والمعتزلة، وغيرهم من فِرَق الضلال المنحرفة عن الصراط المستقيم.

بل لا بد من التفرقة في دعوتنا للوحدة والائتلاف، بين هؤلاء المبتدعة من الفرق الضالة وبين المختلفين من أهل السنة المتبعين لمنهج السلف؛ فهؤلاء هم الذين نسعى لتاليفهم وجمع صفوفهم.

فالمختلفون من أهل السنة، وإن وقع بعضهم في تأويل فاسد وافق فيه بعض الفرق الضالة دون أن يدعو إلى

مذهب تلك الفرقة أو يفاصل أهل السنة ويفارقهم عليه، فإن هذا لا يُخرجه عن مسمى أهل السنة والجماعة، بل إن من علماء أهل السنة والجماعة من وقع في بعض التأويلات وافق فيها مذهب الأشاعرة، لكن دون أن يتبنى مذهبهم أو يدعو إليه، ومن أمثال هؤلاء العلماء الأجلاء: ابن حجر العسقلاني، والنووي، وابن الجوزي، وابن عقيل، وغيرهم، فهؤلاء الأعلام استدرك عليهم علماء أهل السنة بعض التأويلات التي وافقوا فيها مذهب الأشاعرة، ومع ذلك لم يخرج أحد من هؤلاء الأعلام عن مسمى أهل السنة والجماعة.

فيجب علينا أن نفرّق بين من يتنكبون طريق الإسلام، وينحرفون عن منهج أهل السنة إلى مناهج أهل البدع والضلال، وبين الذين يخطئون وهم يسيرون على منهج أهل السنة، وإليه يدعون وبه يستمسكون، فهؤلاء أحوج إلى النصيحة والحوار منهم إلى التشنيع والاحتقار.

إن غياب الفقه الشرعي المتكامل لحقيقة منهج أهل السنة والجماعة، وغياب الإطار الأخلاقي والسلوكي الذي تميز به دائمًا الأفاضل من أئمة السلف على مر العصور هو الذي أدى إلى هذا الواقع الأليم الذي تعيشه هذه الجماعات التي ترفع شعار أهل السنة والجماعة.

إن الجماعة -كما يقرر شيخ الإسلام ابن تيمية- سبب ونتيجة في نفس الوقت، فالحرص على الاجتماع والائتلاف والموالاة العامة لكل المسلمين على أساس التقوى ومحبة الخير للآخرين والحرص على هدايتهم وإخلاص النصح لهم بالحكمة والموعظة الحسنة والصبر عليهم في كل حال، كل ذلك سبب لتنزل رحمة الله عزَّ وجل على الناس، وإسباغ نِعَمه عليهم، ومن رحمة الله على الناس ونعمه عليهم المحافظة على اجتماعهم وائتلافهم وموالاة بعضهم بعضًا.

اختلاف السلف في كثير من القضايا العلمية لم يمنعهم من الائتلاف

لقد اختلف السلف والأئمة وتعددت اجتهاداتهم في كثير من القضايا العلمية والعملية، ونتج عن ذلك تعدد المدارس الدعوية والفقهية.

ووقع البعض منهم في أخطاء اجتهادية وتأويلات بعيدة، ولكن الإخلاص في النية لله وحده، والصدق في القول والعمل، والالتزام بالعلم الشرعي والأخلاق النبوية الكريمة جعلهم يحرصون على وحدة الكلمة والمحافظة على الجماعة والأدب في الحوار، والصبر على المخالف، والدعاء له بالخير، مع التزام ما يراه حقًا وصوابًا، والدعوة إليه، ذلك أنهم كانوا يعون هذه الحقيقة جيدًا.

إن التعاون فيما بينهم والمحافظة على جماعتهم الشاملة وائتلافهم ووحدة كلمتهم والوقوف صفًا واحدًا أمام عدوهم المشترك هو حياتهم، وهو أعظم ما يميزهم وهو سبب نصرهم في كل الميادين. اهـ. [نحو وحدة العمل الإسلامي، محمد بدر، باختصار].

دعوة لرأب الصدع وجمع الكلمة

وختامًا: نقول لكل من ينتمي لهذا الدين الحنيف من أهل السنة- في زماننا-: إننا جميعًا في حاجة ماسة -وأحوج ما نكون من أي عصر مضى- إلى وحدة الصف، وجمع الكلمة، ودراسة فقه الخلاف عمليًا، ومعرفة ضوابطه ومعاييره وآدابه، وما هو السائغ منه وغير السائغ وما يُحمد منه وما يُعاب، وكيف نتعامل مع كل نوع، كما تعامل أئمة السلف من هذه الأمة الذين عرفوا كيف يختلفون وكيف يأتلفون، فسلمت أخوتهم من كل تكدير وتعكير، وصفت نفوسهم من كل بغضاء وشحناء، ورضي عنهم خالق الأرض والسماء.

فيا علماء الأمة ودعاة الحق والخير في كل مكان، يا أولي الأحلام والنهى، يا من تشرفون بالانتماء إلى أعظم عقيدة وأشرف منهج وخير هدي، مَن غيركم يسدّد المسيرة؟! ويرعى حقوق الأخوة؟! ويسعى لرأب الصدع، وجمع الكلمة، وتقليل هوة الخلاف؟!

يا دعاة الحق: أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، وأصلحوا ذات بينكم، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين، هدانا الله وإياكم إلى أقوم طريق وأهدى سبيل.

وصلى الله وسلم وبارك على النبي الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم إلى يوم الدين.

باب السنة

تذكير الحبيب بمرتبة الغريب

إعداد/ د. مرزوق محمد مرزوق

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد:

إنَّ الزُّهْدَ فِي الدُّنْيَا يُرِيحُ الْقَلْبَ وَالْبَدَنَ، وَإِنَّ الرَّغْبَةَ فِي الدُّنْيَا تُكْثِرُ الْهَمَّ وَالْحَزَنَ والمؤمن في الدُّنْيَا كَالْغَرِيبِ لَا يُنَافِسُ فِي عِزِّهَا، وَلَا يَجْزَعُ مِنْ ذُلِّهَا، للنَّاسِ شأن وَلَه شأن ، طريقه مرضاة الله وعمله لأخراه وشوقه لنعيم «دائم يغلب على عرض زائل وهذه مرتبة ينالها العبد – بعد فضل الله – بالسير الجاد إلى مولاه» (أفاده ابن أبي الدنيا في الذهد) وفي هذا المعنى يقول

الإمام البخاري رحمه الله: حدثنا عَلِيُّ بن عبد الله حدثنا محمد بن عبد الرحمن أبو المُنذر الطُّفَاوِيُّ عن سُلَيْمَانَ الْأَعْمَشِ قال حدثني مُجَاهِدٌ عن عبد الله بن عُمَرَ رضي الله عنهما قال: أَخَذَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بِمَنْكِبِي فقال: كُنْ في الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أو عَابِرُ سَبِيلٍ وكان بن عُمَرَ يقول إذا أَمْسَيْتَ فلا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ وإذا أَصْبَحْتَ فلا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ وَخُذْ من صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ

ثانيا: عزو الحديث

١- صحيح البخاري كتاب الرقاق، باب بَاب قَوْلِ النبي صلى الله عليه وسلم كُنْ في الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أو عَابِرُ سَبِيل (٢٣٥٨/٥) رقم(٦٠٥٣)، ط٣/ دار ابن كثير، ت: د. مصطفى ديب البغا

٢- وخرجه الترمذي في سننه،(ط/دار إحياء التراث)، من حديث ليث بن أبي سليم عن مجاهد (٥٦٧/٤) (٢٣٣٣) وزاد فيه: وعد نفسك من أهل القبور، وزاد في كلام ابن عمر: فإنك لا تدري يا عبد الله ما اسمك غدا

٣- وخرجه ابن ماجه كلفظ الترمذي (١٣٧٨/٢) (٤١١٤) غير أنه لم يذكر زيادته في كلام ابن عمر، ط/دار الفكر،ت: محمد فؤاد عبد الباقي

ثالثا: رجال الإسناد (باختصار شديد)

١- علي بن عبد الله: هوابن المديني بصري ثقة ثبت إمام أعلم أهل عصره بالحديث وعلله حتى قال البخاري ما استصغرت نفسي إلا عند علي بن المديني وقال فيه شيخه بن عيينة كنت أتعلم منه أكثر مما يتعلم مني وقال النسائي كأن الله خلقه للحديث (انظرتقريب التهذيب لابن حجر(ج١ ص٤٠٣)،ط١/دار الرشيد، ت/محمد عوامة)

٢- محمد بن عبد الرحمن الطفاوي: أبو المنذر البصري صدوق يهم (التقريب (٤٩٣/١))

فائدة:

لماذا خرج البخاري للطفاوي مع كونه يهم ؟ الجواب أنه بالنظر إلى ترجمة الطفاوي في كتب الرجال نجد أنه ليس معناها أن حديثه حسن يحتمل الضعف ، وقد أخرج له البخاري.

لما يأتي:

١- ورد الحديث من طرق أخري كثيرة ورواة بعض هذه الطرق من رجال الصحيح وهذا مما يقوي الحديث (الفتح ٢٣٤/١١).

٢- كان البخاري لم يشدد فيه لكونه من احاديث الترغيب والترهيب (الفتح ٤٤٠/١).

٣- سليمان الأعمش: هو أبو محمد سليمان بن مهران الأعمش الكوفي ثقة حافظ عارف بالقراءات ورع لكنه يدلس (تقريب التهذيب (٢٥٤/١))

فائدة تتضمن الجواب عن تخريج البخاري للحديث مع كون الأعمش قد وسم بالتدليس:

١- هو ممن احتمل الأئمة تدليسهم: ذكره الحافظ ابن حجر في (طبقات المدلسين (٣٣/١)) وعده في الطبقة الثانية وقد قال شاهدا للواحد من أهل هذه الطبقة (١٣/١):"من احتمل الأئمة تدليسه وأخرجوا له في الصحيح لامامته وقلة تدليسه في جنب ما روى" (طبقات المدلسين ط١/دار المنار)

٢- اشترط البخاري فيمن وسم بالتدليس من أمثال الأعمش رحمه الله أن يقبل حديثه إذا صرح بالتحديث وقد صرح الأعمش بالتحديث عن مجاهد كما سبق بيانه والحمد لله.

إذن ومما ذكر في (٢،١) أنه ممن يحتمل تدليسه وقد صرح بالتحديث يزول الإشكال

٣- مجاهد: هو ابن جبر بفتح الجيم وسكون الموحدة أبو الحجاج المخزومي مولاهم المكي ثقة إمام في التفسير وفي العلم (التقريب (١/٥٢٠)

٤- عبد الله بن عمر بن الخطاب: صحابي جليل معروف ابن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنهما سبق الترجمة له وانظر ترجمته في مظانها من كتب التراجم.

فائدة على إسناد هذا الحديث من كلام أهل العلم تتعلق بالأعمش والطفاوي:

١- ابن حبان: بعدما أخرجه بسنده إلى الطفاوي بالعنعنة أيضا وقال مكثت مدة اظن ان الأعمش دلسه عن مجاهد وانما سمعه من ليث حتى رأيت على بن المديني رواه عن الطفاوي فصرح بالتحديث يشير إلى رواية البخاري التي في الباب

قلت: وهذا يعد جوابا على كلام العقيلي

٢- عبد الرحمن بن أبي حاتم: قلتُ لأبي: من محمد بن عَبد الرحمن هذا؟ قال: لا أعرفه ولا أعرف أحدًا يقال له محمد بن عَبد الرحمن يُحدِّثُ عن الأعمش وها هى رواية البخاري أمامنا تدلل على عدم صحة هذا القول (علل ابن أبي حاتم -١ - ط الحميد (ص: ٤٨١))

قلت: وفائدتنا في هذا المقام أنه ينبغي لطالب العلم ألا يتسرع في الحكم على حديث فإن ذلك يعد جرأة على شرع الله فمن أثبت حديثا فقد أثبت شرعا ومن ضعف حديثا فقد عطل شرعا فالأمر ليس بالهين، كذلك ينبغي على طالب العلم ألا يتجرأ على أهل العلم فضلاً عن الناس لمجرد أنه تعلم شيئا فدونك علمين جليلين - ابن حبان،وأبوحاتم الرازي رحمهما الله - وقد فاتهما ما اتضح لغيرهما كما سبق بيانه.

رابعا: الحكم على الحديث

قلت: هوكما حكم عليه إمام المحدثين البخاري رحمه الله فهو حديث صحيح وقد نقلنا الجواب على ما طرأ عليه من شبهة الضعف عند من ضعفه من الأكابر من أهل العلم رحمهم الله جميعا.

خامسا: الشرح

١- قوله باب قول النبي صلى الله عليه وسلم كن في الدنيا كأنك غريب: ترجم ببعض الخبر إشارة إلى ثبوت رفع ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأن من رواه موقوفا قصر فيه (فتح الباري (٢٣٥/١١))

فائدة: قلت: ويستفاد من هذا معرفة مكانة البخاري وجلالة قدره رحمه الله ويتأكد هذا بما ظهر للناس في زمان البخاري وبعده من فقهه رحمه الله في تراجم الأبواب وانظر الكتب التي تخصصت في شرح عناوين تراجمه فقط وجعلت نفسها واسطة بين فهم وفقه البخاري العالي وبين فهمنا نحن المتواضع فدلت على دقة فقهه، كما دلت على عظيم حفظه، ومنها على سبيل المثال "المتواري على تراجم أبواب البخاري" لابن المنير السكندري، تراجم أبواب البخاري" للشاه ولي الله الدهلوي، و " شرح تراجم أبواب البخاري"، لمحمد زكريا الكاندهلوي والأخير من أروع ما كتب في بابه فقد وفى رحمه الله بشهادة أهل التخصص، وغيرها الكثير، أما عن الكتب التي ألفت حول صحيح الإمام البخاري عموما فكثيرة جدا وتتجاوز ٥٠٠ كتاب، مابين شرح واختصار وكلام على رجاله وتراجمه....إلخ، قلت هذا وأسهبت فيه ليعلم أعداء السنة من هم نقلتها عموما ومن هو البخاري خصوصا.

٢- قوله أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي: المنكب بكسر الكاف: مجمع العضد والكتف وضبط في بعض الأصول بالتثنية (أي منكبي) والمعنى: أمسك النبي صلى الله عليه وسلم بكتفى (فتح الباري (٢٣٥/١١))

فائدة - قال الحافظ في الفتح (٢٣٥/١١): وفي الحديث مس المعلم أعضاء المتعلم عند التعليم والموعوظ عند الموعظة وذلك للتأنيس والتنبيه ولا يفعل ذلك غالبا الا بمن يميل إليه، وقال المباركفوري [(التحفة (٢٣٥/٦))] ونكتة الأخذ تقريبه إليه وتوجهه عليه ليتمكن في ذهنه ما يلقى لديه.

٣- قوله كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل: قال الحافظ: قال الطيبي ليست للشك بل للتخيير والاباحة والاحسن ان تكون بمعنى بل (أي: للإضراب) فشبه الناسك السالك بالغريب الذي ليس له مسكن يأويه ولا مسكن يسكنه ثم ترقى وأضرب عنه إلى عابر السبيل (فتح الباري (٢٣٥/١١)

٤- وقوله رضى الله عنه: (إذا أمسيت فلا تنتظر

الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء) حض منه على أن يجعل الموت نصب عينيه، فيستعد له بالعمل الصالح، وحض له على تقصير الأمل، وترك الميل إلى غرور الدنيا..(شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/١٤٩)، ط/مكتبة الرشد)

٥- وقوله رضى الله عنه: (خذ من صحتك لمرضك): اشتغل في الصحة بالطاعة بحيث لو حصل تقصير في المرض ليجبر بذلك أي ان العمر لا يخلو عن صحة ومرض فإذا كنت صحيحا فسر سير القصد وزد عليه بقدر قوتك ما دامت فيك قوة بحيث يكون ما بك من تلك الزيادة قائما مقام ما لعله يفوت حالة المرض والضعف [انظر:تحفة الأحوذي للمباركفوري (٦/٥١٦)].

٦- وكذلك قوله رضى الله عنه: (ومن حياتك لموتك): تنبيه على اغتنام أيام حياته، ولا يمر عمره باطلاً فى سهو وغفلة، لأن من مات فقد انقطع عمله وفاته أمله وحضره على تفريطه ندمه، فما أجمع هذا الحديث لمعانى الخير وأشرفه.(شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/١٤٩)

٧- قوله صلى الله عليه وسلم " وعد نفسك من أهل القبور " وكذا قول ابن عمر " فإنك ياعبدالله لا تدري ما اسمك غدا" (وهي زيادات الترمذي وغيره): أي عد نفسك من الأموات فإنك لا تدري ما اسمك غدا (الشقي أو السعيد وقيل المراد هل يقال هو حي أو ميت) (انظر:تحفة الأحوذي للمباركفوري (٦/٥١٦)

خامسا: الفوائد العامة المستنبطة من الحديث (غير ما سبق ايراده في موضعه)

١- هذا الحديث أصل في قصر الأمل في الدنيا فإن المؤمن لا ينبغي له أن يتخذ الدنيا وطنا ومسكنا فيطمئن فيها ولكن ينبغي أن يكون فيها كأنه على جناح سفر يعد جهازه للرحيل وقد اتفقت على ذلك وصايا الأنبياء وأتباعهم قال تعالى حاكيا عن مؤمن آل فرعون أنه قال: "إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار" غافر (جامع العلوم والحكم (١/٣٧٩)، ط/مؤسسة الرسالة)، وننبه على إخواننا أن قصر الأمل في الدنيا لا نقصد به أبدا ترك العمل والتكاسل والتواكل بل توافرت أدلة الشرع على الحث على العمل والجد فيه لكننا قصدنا أن تكون هذه الدنيا في أيدينا وليست في قلوبنا وأن هذا الجد في العمل هو من قبيل الرغبة في الأجر والاستعداد للآخرة والسعي الجاد لرفعة شأن الأمة وغير ذلك مما يحضر المؤمن من نوايا إتباع حبيبه صلى الله عليه وسلم.

٢- قلت: هذا الحديث يرشد إلى ترك فضول الخلطة والحث على العزلة المشروعة لذا وضعه الامام الخطابي في كتابه العزلة (٣٩)،ط٢/السلفية) في " باب في ترك الاستفسار من الاصدقاء وما يستحب من قلة الالتقاء"

وأوصي إخواني بالرجوع إليه وقراءته بعناية أوإلى أمثاله مما كتب في بابه بحسب ما يتيسر من مصادر ليفرق الأحبة بين الخلطة المفيدة والخلطة الضارة.

٣- المرء في الدنيا كعبد أرسله سيده في حاجة إلى غير بلده فشأنه ان يبادر بفعل ما أرسل فيه ثم يعود إلى وطنه فلا تحدثه نفسه بالبقاء فيها ولا تتعلق منها بما لا يتعلق به الغريب في غير وطنه (فتح الباري (١١/٢٣٥)

٤- وفيه مخاطبة الواحد وإرادة الجمع وحرص النبي صلى الله عليه وسلم على إيصال الخير لامته والحض على ترك الدنيا والاقتصار على ما لا بد منه(فتح الباري (١١/٢٣٥)

أخيرا: في رياض الحديث

هذا الحديث وصية نبوية مباركة تدعو إلى عدم الركون إلى الدنيا، وإن الناظر إلى حقيقتها، يعلم أنها لم تكن يوما دار إقامة، أو موطن استقرار، ولئن كان ظاهرها يوحي بنضارتها وجمالها، إلا أن حقيقتها فانية، ونعيمها زائل، كالزهرة النضرة التي لا تلبث أن تذبل ويذهب بريقها.

تلك هي الدنيا، لا تصفو فيها سعادة، ولا تدوم فيها راحة، ولا يزال الناس في غمرة الدنيا ساهون يركضون، وخلف حطامها يلهثون، حتى إذا جاء أمر الله انكشف لهم زيف ما يصنعون، وصدق الله العظيم إذ يقول: «وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور» (آل عمران: ١٨٥).

وما كان لحبيبنا عليه الصلاة والسلام ليترك أصحابه دون أن يبيّن لهم ما ينبغي عليهم ولذا جاء هذا الحديث بيانا وحجة ووصية.

لقد أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بمنكبيّ

عبدالله بن عمر رضي الله عنهما؛ ليسترعي بذلك انتباهه، ويجمع إليه فكره، ويشعره بأهمية ما سيقوله له،: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل)، فانسابت تلك الكلمات إلى روحه وسكنت في نفسه وطيبتها.

لقد شبَّه النبي صلى الله عليه وسلم مُقام المؤمنين في الدنيا بحال الغريب؛ فإنك لا تجد في الغريب ركونا إلى الأرض التي حل فيها أو أنسا بأهلها، ولكنه مستوحش من مقامه، دائم القلق، لم يشغل نفسه بدنيا الناس، بل اكتفى منها بالشيء اليسير.

وانظر جامع العلوم والحكم لابن رجب رحمه الله (٣٨٠)): وإذا لم تكن الدنيا للمؤمن دار إقامة ولاوطنا فينبغي للمؤمن أن يكون حاله فيها على أحد حالين إما أن يكون كأنه غريب مقيم في بلد غربة همه التزود للرجوع إلى وطنه أو يكون كأنه مسافر غير مقيم البتة بل هو ليله ونهاره يسير إلى بلد الإقامة فلهذا وصى النبي صلى الله عليه وسلم ابن عمر أن يكون في الدنيا على أحد هذين الحالين "

ولأبي العتاهية من جملة أبيات:

وما أدري وإن أملت عمرا
لعلي حين أصبح لست أمسي
ألم تر أن كل صباح يوم
وعمرك فيه أقصر منه أمس

فالعاقل يعلم أن الإنسان لم يزل في هدم عمره منذ سقط من بطن أمه،

إنا لنفرح بالأيام نقطعها
وكل يوم مضى يدني من الأجل

إن غربة المؤمن في هذه الدنيا، تقتضي منه التمسك بالدين، ولزوم الاستقامة، حتى وإن حاد الناس عن الطريق؛ فصاحب الاستقامة له هدف يصبو إليه، وهذه هي حقيقة الغربة التي أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: (بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريبا فطوبى للغرباء)(مسلم ١٤٥).

ثم ينقل الحديث المؤمن من حال الغريب إلى حال عابر السبيل الذي جمع بين الغربة والسفر فصارت غربته أشد وأعلى من غربة المقيم ، إن عابر السبيل لا يأخذ من الزاد سوى ما يكفيه مؤونة الرحلة، ويعينه على مواصلة السفر، لا يقر له قرار حتى يصل إلى أرضه ووطنه و الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة، حتى ينتهي ذلك بهم إلى آخر سفرهم، و انقطاع السفر عما قريب، والأمر أعجل من ذلك، فتزود يا حبيبي لسفرك، واقض ما أنت قاض من أمرك.

روى ابن أبي الدنيا في كتاب الزهد (ص: ١٦٩) بسنده إلى عمر بن محمد المكي قال: خَطَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَقَالَ: إِنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ بِدَارِ قَرَارِكُمْ، دَارٌ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْفَنَاءَ، وَكَتَبَ عَلَى أَهْلِهَا مِنْهَا الظَّعْنَ، فَكَمْ عَامِرٌ مُوثَقٌ عَمَّا قَلِيلٍ يُخَرَّبُ، وَكَمْ مُقِيمٌ مُغْتَبِطٌ عَمَّا قَلِيلٍ يَظْعَنُ، فَأَحْسِنُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ مِنْهَا الرِّحْلَةَ، وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى، إِنَّمَا الدُّنْيَا كَفَيْءِ ظِلَالٍ قَلَصَ فَذَهَبَ، بَيْنَمَا ابْنُ آدَمَ فِي الدُّنْيَا يُنَافِسُ فِيهَا قَرِيرَ الْعَيْنِ قَانِعًا، إِذْ دَعَاهُ اللَّهُ بِقَدَرِهِ، وَرَمَاهُ بِيَوْمِ حَتْفِهِ، فَسَلَبَهُ آثَارَهُ وَدُنْيَاهُ، وَصَيَّرَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ مَصَانِعَهُ وَمَغْنَاهُ، إِنَّ الدُّنْيَا لَا تَسُرُّ بِقَدْرِ مَا تَضُرُّ، إِنَّهَا تَسُرُّ قَلِيلًا، وَتُحْزِنُ حُزْنًا طَوِيلًا "

ذلك هو المعنى الذي انساب إلى نفس ابن عمر، فنلمس ذلك في وصيته رضي الله عنه: " إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك، فإنك ياعبد الله لا تدري ما اسمك غدا "

ولأبي العتاهية من جملة أبيات:

نسير إلى الآجال في كل لحظة
وأيامنا تطوى وهن مراحل
ترحل من الدنيا بزاد من التقى
فعمرك أيام وهن قلائل

ولأهمية هذا المقام نجد عناية أئمة السلف به في تصانيفهم فنجد إماما كالآجري يفرد له كتابا بعنوان " الغرباء"

فضلا عن إهتمامهم بهذا المقام ويعنونون له في كتبهم كما فعل ابن القيم في مدارج السالكين زيادة على الوصية بهذا المقام في طيات مواعظهم وأشعارهم كما فعل ابن القيم في (مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة) (١/١٥١)):

فَحَيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا
مَنَازِلُكَ الْأُولَى وَفِيهَا الْمُخَيَّمُ
وَلَكِنَّنَا سَبْيُ الْعَدُوِّ فَهَلْ تَرَى
نَعُودُ إِلَى أَوْطَانِنَا ونسلم

فاللهم ارحم في الدنيا غربتنا، وارحم في القبر وحشتنا، وارحم موقفنا غدا بين يديك.

القسم الثاني

درر البحار من ضعيف الأحاديث القصار

الحلقة السابعة عشرة

إعداد/ علي حشيش

١٧٧ - (مَنْ لا يَهْتَمُّ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ، وَمَنْ لا يُصْبِحُ وَيُمْسِي نَاصِحًا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِإِمَامِهِ وَلِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ).

الحديث لا يصح: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (ح٧٤٦٩)، والصغير (٢/٥٠)، وهذا الحديث غريب. قال الطبراني في «الأوسط»: «لا يُروى هذا الحديث عن حذيفة إلا بهذا الإسناد، وتفرد به عبد الله بن أبي جعفر الرازي». اهـ.

وآفته عبد الله بن أبي جعفر، وأبوه، فأبو جعفر الرازي هو عيسى بن ماهان، قال ابن حبان في «المجروحين» (١٢٠/٢): «كان ممن ينفرد بالمناكير عن المشاهير». اهـ.

وأورده الذهبي في «الميزان» (٦٥٩٥/٣٢٠/٣): ونقل عن الفلاس قال: «سيء الحفظ»، وقال أبو زرعة: «يهم كثير».

أما ابنه عبد الله بن أبي جعفر فأورده الحافظ المزي في «تهذيب الكمال» (٣١٩١/٦٨/١٠)، ثم نقل عن محمد بن حميد قال: «عبد الله بن أبي جعفر كان فاسقًا، سمعت منه عشرة آلاف حديث فرميت بها». وذكره الحافظ ابن حجر في «تهذيب التهذيب» (١٥٤/٥)، وأقر قول محمد بن حميد في عبد الله بن أبي جعفر، ثم بيَّن أن روايته عن أبيه لا يُعتدّ بها. وأورد هذا الحديث الحافظ الهيثمي في «المجمع» (٨٧/١)، واقتصر في علته على عبد الله بن أبي جعفر، فتعقبه الألباني رحمه الله في «الضعيفة» (ح٣١٢) قائلاً: «واقتصر الهيثمي في «المجمع» (٨٧/١) في إعلال الحديث على تضعيف الابن فقط، وهو قصور، فإن الأب أشد ضعفًا من الابن». اهـ.

وقد استفضنا في بيان علة هذا الحديث لشهرته وكثرة الأسئلة حوله، وسنبين ما يتعلق به من شواهد حتى لا يتقول علينا من لا علم له بالصناعة الحديثية مدعيًا أن له متابعات وشواهد.

١٧٨ - (مَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ غَيْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ، وَمَنْ لاَ يَهْتَمُّ لِلْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ).

الحديث لا يصح: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣٢٠/٤) من طريق إسحاق بن بشر: حدثنا مقاتل بن سليمان عن حماد عن إبراهيم عن عبد الرحمن بن يزيد عن ابن مسعود مرفوعًا، فتعقبه الذهبي في «تلخيص المستدرك» قائلاً: «إسحاق ومقاتل ليسا بثقتين، ولا صادقين».

وقال الإمام الذهبي في «الميزان» (٧٣٩/١٨٤/١): «إسحاق بن بشر أبو حذيفة تركوه، وكذَّبه عليّ بن المديني، وقال ابن حبان: لا يحل حديثه إلا على جهة التعجب، وقال الدارقطني: كذاب متروك». اهـ.

وساق له هذا الحديث ثم قال عقبه: «مقاتل أيضًا تالف»، وأخرج الحافظ ابن حبان في «المجروحين» (١٥/٤) عن وكيع قال: «مقاتل بن سليمان البلخي كان كذابًا».

قلت: فهذا الحديث يتوهم البعض أنه شاهدٌ للحديث الأول في جملة «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»، ولا

يدري أنه بما فيه من كذابين لا يزيد الأول إلا وهنًا على وهن، كما هو متفق عليه عند أصحاب الحديث.

١٧٩- (مَنْ أَصْبَحَ وَهَمُّهُ الدُّنْيَا فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ، وَمَنْ لَمْ يَهْتَمَّ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ، وَمَنْ أَعْطَى الذِّلَّةَ مِن نَفْسِهِ طَائِعًا غَيْرَ مُكْرَهٍ فَلَيْسَ مِنَّا).

الحديث لا يصح: أخرجه الطبراني في الأوسط (ح٤٧٤) من حديث أبي ذر مرفوعًا، وعلته يزيد بن ربيعة الرحبي، قال الإمام النسائي في «المتروكين» (٦٤٣): «متروك الحديث»، قلت: وهذا المصطلح عند النسائي له معناه، فقد قال الحافظ ابن حجر في «شرح النخبة» (ص٧٣): «كان مذهب النسائي أن لا يترك حديث الرجل حتى يجتمع الجميع على تركه». اهـ.

لذا قال البخاري: أحاديثه مناكير، وقال الجوزجاني: أخاف أن تكون أحاديثه موضوعة.

١٨٠- (مَنْ أَصْبَحَ وَالدُّنْيَا أَكْبَرُ هَمِّهِ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ، وَمَنْ لَمْ يَتَّقِ اللَّهَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ، وَمَنْ لَا يَهْتَمُّ لِلْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ).

الحديث لا يصح: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣١٧/٤) من طريق إسحاق بن بشر، حدثنا سفيان الثوري عن الأعمش عن شفيق عن سلمة عن حذيفة مرفوعًا، وسكت عنه فتعقبه الذهبي في «التلخيص» بقوله: «قلت: إسحاق عدم، وأحسب الخبر موضوعًا»، وكما بينا آنفًا أن إسحاق بن بشر كذاب.

١٨١- (مَنْ أَصْبَحَ وَأَكْثَرُ هَمِّهِ غَيْرُ اللَّهِ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ، وَمَنْ لَمْ يَهْتَمَّ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ).

الحديث لا يصح: أورده السيوطي في «اللآلئ» (٣١٦/٢) من رواية ابن النجار بسنده إلى أبان عن أنس مرفوعًا، وآفته أبان بن أبي عياش، قال النسائي في «المتروكين» (٢١): «متروك»، وقال يحيى بن معين: «متروك»، وكذَّبه شعبة، وقال عبارته المشهور: «داري وحماري في المساكين صدقة إن لم يكن أبان بن عياش يكذب في الحديث». وقال الجوزجاني: «ساقط»، كما في «الميزان» (١٤/١١/١).

قلت: هذه خمسة أحاديث من حديث حذيفة، وابن مسعود، وأبي ذر، وأنس في رواتها من هو فاسق؛ ينفرد بالمناكير عن المشاهير، وفي رواتها المتروكون، والكذابون، والساقطون، فهذه الأحاديث لا تصلح للمتابعات والشواهد للحديث الأول في جملة: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم»، بل تزيدها وهنًا على وهن. للقاعدة التي ذكرها الحافظ ابن كثير في «اختصار علوم الحديث» (ص٣٣): «لا يلزم من ورود الحديث من طرق متعددة أن يكون حسنًا؛ لأن الضعف يتفاوت؛ فمنه ما لا يزول بالمتابعات، يعني لا يؤثر كونه تابعًا أو متبوعًا كرواية الكذابين والمتروكين». اهـ.

هذا الحديث الذي بيَّنا بجميع طرقه وشواهده أنه لا يصح، يتخذه الخوارج دليلاً على تكفير الحكام الذين لا يهتمون بأمر المسلمين والخروج عليهم وعلى أعوانهم بما جاء في متنه: «ليس من المسلمين»، ويغني عن هذه الأحاديث التي لا تصح البدائل الصحيحة الثابتة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

أ- عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». [متفق عليه].

ب- عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»، ثم شبَّك بين أصابعه. [متفق عليه].

هذا هو الأصل للاهتمام بأمر المسلمين؛ ليكونوا واحدًا لا اثنين، وفيه المخرج من الفتنة، إن شاء الله.

أثر الإسلام في التفكير الإنساني

إعداد/ د/السيد عبد الحليم
الأمين العام المساعد لمجمع فقهاء الشريعة بأمريكا

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد: لقد وصلتنا عدوى أثيمة مع ما وصلنا من أباطيل الغرب وأكاذيبه وآثامه، استهوت فريقًا من إخواننا في الوطن والعروبة والدين، فلاكتها ألسنتهم، ورددتها أفواههم، دون أن يعرفوا لها معنى ولا مضمونًا، ودون أن يدركوا خطرها ونتائجها، هذه العدوى هي دعوة تتنكر لشرع الله، وتحاول أن تربّي شباب العالم من جديد على معاداة الدين بكل ما يدعو إليه من مُثل ومبادئ شريفة.

من أجل هذا نسطر هذه الكلمات -عبر مجلة التوحيد الغراء- لنوضح أهمية الإسلام وأثره في التفكير الإنساني، وأنه رسالة سماوية نزل بها ملك من السماء على عبد الله ورسوله نبينا محمد بن عبد الله، ونوضح كذلك أننا لا يمكن أن نترك عقيدتنا الصالحة، وديننا الأمثل، ونستعيض بها أفكارًا جاهلية أتى بها إنجلز وماركس ولينين وستالين، وسواهم من دعاة الشرك والضلال.

الإسلام أول وثيقة لحقوق الإنسان

يقول الله تعالى: «قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» [الأنعام: ١٦١].

منذ أكثر من قرن ونصف من الزمان، قامت الثورة الفرنسية، وأذاعت في أوربا والعالم كله مبادئ الحرية والإخاء والمساواة، وقام على أساس هذه المبادئ عهد جديد في تاريخ الإنسانية، ونسبوا كل فضل فيه إلى فرنسا مهد الحرية والنور، ويعلم الله أنهم كانوا في ذلك أغرارًا، وأنهم نسوا الإسلام ومبادئه الخالدة التي كانت أول لبنة في صرح الحضارة الإنسانية.

ولقد هال الناس ولا يزال يهولهم، هذا الفرق الشاسع بين هذه المبادئ التي طبّقها الغرب في العالم، فكانت شرًا وبلاءً واستعمارًا مخيفًا، وقتلاً للحريات والشعوب، وبين مبادئ الإسلام السمحة الكريمة، التي قامت عليها دول، نشرت العلم والحضارة، والنور والحرية، والإخاء في العالم كله، وأنقذت الدنيا من ظلمات العصور الجاهلية، ورفعت قدر الفكر الإنساني، ونقلت تراث الأقدمين وحفظته ونشرته، واقتبس الغرب كل مقومات حضارته وعمرانه وحياته من تاريخها ومبادئها، وأفكارها وثقافاتها، وحضارتها الزاهية المشرقة.

إن الإسلام بما قدم للإنسانية قد برهن أنه هو أول وأعظم وثيقة سماوية حمت حقوق الإنسان ودافعت عنها، وأعلنت حمايتها له.

مثلنا الأعلى

«مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ» [غافر: ٤].

جمع الإسلام وكتابه الحكيم شتى أصول التقدم الأدبي والروحي والمادي والاجتماعي، ودعا إلى مختلف المقومات العالية لمدنية فاضلة كريمة مهذبة، غايتها سعادة الفرد والجماعة والأمم والإنسانية. وأحكام الإسلام وآدابه هي نمط رفيع للمُثل العليا التي سعدت بها البشرية، واستقامت بها حال المجتمعات، وفاءت إلى ظلها الظليل الشعوب.

ولقد كان نزول القرآن على نبينا محمد بن

عبد الله صلى الله عليه وسلم حدثًا فكريًا ودينيًا وإنسانيًا خطيرًا، فقد قلب الأوضاع السيئة ، وبدّل النُظم الرديئة، وغيَّر مجرى الحياة، وقضى على ما توارثه بعض البشر من جهل وحمق وسفه، ووحشية وضلال، وطغيان وبهتان، وأحال ذلك كله حضارة وعلمًا وأدبًا وأمنًا وحرية وسلامًا ورفاهية في كل مكان.

خفقت الراية الإسلامية على شعوب كثيرة ذات حضارات قديمة، وعلى أمم بدائية لم تعرف نواميس التقدم والرقي من قبل، فوحَّد الشعوب، وبدَّد الفرقة، وساوى بين هذه وتلك، وحارب التفرقة العنصرية الكاذبة، وقاد الجميع بكلمة الله إلى حيث العمل والنظام، والاتحاد والجهاد لأداء رسالة الدين، والتبشير بحياة فاضلة بين الناس، وصارت العربية هي لغة العالم الجديد، والقرآن دستور الحياة في هذه الرقعة الشاسعة من الأرض، والإسلام هو عقيدة الجماعات والطوائف والأفراد.

جاء الإسلام يبشر الجماعات والشعوب بحرياتها، ويدعو إلى أكرم ما في الحياة من مبادئ، وإلى أسمى ما تتطلع إليه الإنسانية من مُثُل وغايات وأهداف، ويشرع شرائع للسلام لم يشرعها من قبل ولا من بعد مذهبٌ من المذاهب، ولا عقيدة من العقائد.

كفل ديننا الخالد الحريات، وهدم الفروق الظالمة بين الناس، وسوَّى بينهم في الحقوق والواجبات، وجعل الرئيس والمرءوس مسئولين عن أعمالهم، ووسَّع باب العدالة ؛ حتى لا تنتهي فيه عند حدّ، ولم يستثن من أحكامها إنسانًا ولا طائفة، ولم يقف في طريقها حتى اعتبارات الفتح والغلبة والسيادة، يقول عمر رضي الله عنه من وصيته للخليفة من بعده: «اجعل الناس عندك سواء: لا تبال على من وجب الحق، ثم لا تأخذك في الله لومةَ لائم، وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله». (نثر الدرر ٢/ ٣٨) .

موقف الإسلام من الحريات:

وقد قرر الإسلام الحريات وحماها الإسلام في كتابه الحكيم، ولنشر الإسلام في الأرض دعا الإسلام إلى المساواة الكاملة بين الناس جميعًا: الصغير والكبير، والمحكوم والحاكم؛ والفقراء والأغنياء، وبين جميع الطبقات والجماعات، وهي مساواة لا تعرف معنى للعصبيات والأجناس والألوان، حتى لقد كان الخليفة عمر رضي الله عنه يمشي وعبده راكبٌ، وولى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالاً رضي الله عنه على المدينة وفيها سادة المسلمين من الأنصار والمهاجرين، وأبطل الإسلام التفاخر بالأحساب والأنساب والأموال، وجعل العمل وحده هو محور التفضيل والإكرام: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» [الحجرات : ١٣] ، ولذلك ألغى الإسلام الفوارق والامتيازات، ودعا إلى عدالة اجتماعية حكيمة مبنية على الأخوة والتكافل العام بين الأفراد والجماعات، عدالة أساسها التحرر الوجداني والضمير البشري الحي والتشريع الإسلامي المحكم.

ويقرر الإسلام أن أصل الناس واحد، وأنهم إخوة في الإنسانية، وأن علاقات الأمم بعضها ببعض يجب أن تنبني على السلام والمحبة والتعاون في الأرض، ولذلك حارب الاستعمار والاستغلال والطغيان والفساد، وحرم شنّ الحرب للسيطرة والنفوذ والسلطان، ودعا إلى الرحمة والخير، والإيثار والإخاء، والمحبة بين الناس، وحطم الشرك والوثنية حتى لا يستعبد أحد أحدًا في الأرض، وهدم عروش الطغيان والجبروت، واعترف بحقوق الفرد الأساسية، ورعى حقه في العيش وفي الأمان الاجتماعي، وفي المنزلة الأدبية، حتى لا يوجد شيء يعكّر أسباب السلام بين الناس.

والإسلام كذلك دين يرتكز على أصول قوية، ودعامات ومبادئ مثلى، فهو يؤمن بروح التسامح والحرية الاجتماعية، وحرية الرأي

للأفراد والجماعات، وبالحرية الاقتصادية التي تهدف إلى تحقيق الرفاهية للناس كافة، والتي تؤدي التزاماتها كذلك للفقراء وللمجتمع والدولة، ثم هي تحارب كل لون من ألوان التمييز بين الناس، طالما كانت كل هذه الحريات في ظل أصول هذا الدين الحنيف.

أصول الإسلام تراعي أحوال البشر:

فقد أقام الإسلام أصوله على قواعد مثلى، دعامتها العمل والتعاطف والتكافل، والمحبة بين الناس، والإيثار والتضحية، وتقديم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد، ومساعدة كل محتاج، لا يدع لذي ألم ألمًا، ولا لذي حاجة حاجةً، ولا لذي كربة كربةً، تكافل يرعاه اللهُ ورسوله وشريعته، ويدعو إليه الضمير الإنساني.

وهو من الناحية الاقتصادية ينزع إلى مقاومة الاستغلال في مختلف ألوانه، ومن الناحية السياسية يدعو إلى الشورى والإخاء بين الناس، ومن الناحية الاجتماعية يقاوم الفقر، ويجعل الغنى وظيفة اجتماعية تناط به حقوق والتزامات.

ومن حيث الوسائل ينكر الثورة والتمرد وصراع الطبقات، ويحرص على الأمن والسلام بين الناس، ولا يجعل الملكية وسيلة للامتياز والتفاوت بين الناس، وغايتها إشاعة الخير والرفاهية بين بني البشر عامة، وحماية حقوق الإنسان والعامل والمرأة، وتقرير التأمين الاجتماعي للفقراء والمعوزين، وفرض الزكاة عبادة يخصص إنفاقها لمحاربة الفقر وسد حاجة المنكوبين من الناس، وحرّم الربا والاستغلال والاحتكار في شتى صوره، ورفع شأن العامل وفتح أبواب العمل أمامه، وحض على العمل وعلى إيجاده للعاطلين؛ بما يشرعه للإسلام من نظم اقتصادية سليمة، كالمزارعة والمساقاة والمضاربة، والشركة والإجارة، وعقد العمل وسوى ذلك.

ومن ثَم حرم ديننا الترف، وأوصى بالصدقة والإحسان، وفرض نفقة الأقارب المحتاجين على ذويهم من الأثرياء أو القادرين على الكسب، وشرع نظام الوصية والقرض والوديعة، والإعارة والهبة، وفريضة الميراث، وأوصى بالتكافل الاجتماعي بين المسلمين عامة.

عظمة حضارة الإسلام:

وهكذا نجد أصول الإسلام ومقومات شريعته ودعائم ميراثه الروحي، تنزع نحو حماية الحريات وإشاعة السلام والخير بين الناس، وتجعل من هذه الأصول الكريمة أساسًا لحضارة إسلامية مشرقة، ومدنية روحية مزدهرة، قامت ونمت وترعرعت في الأرض، واجتمعت عليها الأمم والشعوب متعاونة متحدة يسودها العدل والأمن والطمأنينة، والنور والعلم؛ والإخلاص لله ولرسالة الإسلام السامية.

فأين هذا من صنع الحضارات المادية السائدة في عالم اليوم، ومن آثام المدنية الغربية المجللة بالخزي والعار والكراهية على أرض الشرق؟! أين هذه الأصول السمحة العالية الكريمة من الأصول التي تبنى عليها دول الغرب سياستها التي تهدم صروح الحرية والسلام في كل مكان؟!

إن الإنسان الذي يعيش اليوم في غمار مدنية القرن الحادي والعشرين لأولى به أن يرجع إلى حياة الغابة من أن يعيش في ظلال القلق والخوف والطغيان والدماء.

وإن المدنية التي ترفرف على شعوب العالم الآن لحري بها أن تنكس الأعلام خزيًا وحياءً من أن تنسب إلى المدنية الفاضلة، وإشفاقًا من أن توزن بمدنية المسلمين التي شملت العالم كله حقبًا من الزمن، فشمله الخير والنور والسلام، وسعدت بها أمم كانت ترسف في قيود الطغاة، فاستعادت حريتها، وعاشت تكافح من أجل رفاهية البشر وتقدمهم، ونشر رسالة الله والإسلام بين الناس. وللحديث بقية إن شاء الله، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .



أسئلة القراء عن الأحاديث

الحلقة الأولى

يجيب عليها:

المحدث

أبو إسحاق الحويني

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

أما بعد فقد وردت إلينا هذه الأسئلة ونستعين بالله عز وجل في الجواب عنها:

١- يسأل سائل عن صحة حديث: «أُمرت بقرية تأكل كل القرى، وهي يثرب، وهي المدينة، تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد». وما معناه؟

والجواب بحول الملك الوهاب: أن هذا الحديث صحيح.

أخرجه البخاري (١٨٧١)، ومسلم (١٣٨٢/٤٨٨)، والنسائي في «الكبرى» (٤٢٤٧، ١١٣٣٥)، وأحمد (٢/٢٣٧)، وابن حبان (٣٧١٥)، والطحاوي في «المشكل» (٢/٣٣٢ - ٣٣٣)، والبزار (ج٢/ق ١/١٦١)، والجندي في «فضائل المدينة» (٢٢)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/١٠٤)، والبغوي في «شرح السنة» (٧/٣٢٠)، عن مالك بن أنس، وهو في «الموطأ» (١/٨٨٧/٥).

وأخرجه مسلم (٢/١٠٠٦) وأحمد (٢/٢٤٧)، والحميدي (١١٥٢)، والجندي في «فضائل المدينة» (١٩) عن سفيانٍ بن عيينة.

وأخرجه مسلم أيضًا عن عبد الوهاب الثقفي.

وأخرجه أحمد (٢/٣٨٤) عن حماد بن سلمة.

وأخرجه أبو يعلى (٦٣٧٤)، والطحاوي في «المشكل» (٢/٣٣٢ - ٣٣٣)، عن عمرو بن الحارث كلهم عن يحيى بن سعيد الأنصاري، قال: سمعت سعيد بن يسار، قال سمعت أبا هريرة فذكره مرفوعًا.

أما معناه: فقال البغوي في «شرح السنة» (٧/٣٢٠ - ٣٢١): «قوله: «تأكل القرى» أي: يُجلَب إليها طعام القرى، فهي تأكلها، وأراد ما يحصل من الفتوح على أيديهم، ويصيبون من الغنائم، وأضاف الأكل إلى القرية، والمراد أهلها، كما قال تعالى: «يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ» [يوسف: ٤٨]، فأضاف الأكل إلى السنين، والمراد أهل زمانها.

وقال أبو حاتم -يعني: ابن حبان-: هذا

تمثيل مراده أن الإسلام ابتداؤه في المدينة، ثم يغلب سائر القرى، ويعلو سائر الملل، فكأنها أتت عليها، وسُميت القرية قرية لاجتماع الناس فيها، من: قريت الماء في الحوض أي: جمعته. ورُوي أن عمر بن عبد العزيز حين خرج من المدينة، التفت إليها فبكى، ثم قال: يا مزاحم أتخشى أن نكون ممن نفت المدينة؟!

٢- ويسأل سائل عن حديث: «إن الميت إذا وُضع في قبره سَمِعَ خَفْق نعالهم إذا تفرقوا».

قلت: هذا حديث صحيح.

أخرجه البخاري (٢٣٢/٣)، ومسلم (٢٠٣/١٧ - نووي)، والنسائي في «الصغرى» (٩٦/٤، ٩٧- ٩٨)، وأبو داود (٣٢٣١)، وأحمد (٢٣٣/٣)، والبيهقي (٨٠/٤)، وابن حزم في «المحلى» (١٣٧/٥)، والبغوي في «تفسيره» (٣٤/٣)، عن سعيد بن أبي عروبة. وأخرجه مسلم والنسائي في «الصغرى» (٩٦/٤، ٩٧- ٩٨)، وفي «الكبرى» (٢١١٧)، وأحمد (١٢٦/٣)، وعبد بن حميد في «مسنده» (١١٧٨)، عن شيبان بن عبد الرحمن، كلاهما عن قتادة عن أنس «أنه حدثهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن العبد إذا وُضع في قبره، وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيُقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة، فيراهما جميعًا»، وقال قتادة: وذُكر لنا أنه يُفسح له في قبره. ثم رجع إلى حديث أنس قال: «وأما المنافق والكافر فيُقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقوله الناس. فيقال: لا دريت ولا تليت، ويُضرب بمطارق من حديد ضربة، فيسمعها من يليه غير الثقلين» هذا لفظ البخاري.

٣- ويسأل سائل عن حديث: «اللهم اقضِ عنا الدين، وأغننا من الفقر».

قلت: هذا حديث صحيح.

أخرجه مسلم (٣٦/١٧ - ٣٧ نووي) والترمذي (٣٤٨١)، وابن أبي شيبة (٢٩٣٤٣)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٥٢)، من طريق الأعمش، عن أبي صالح عن أبي هريرة، قال: أتت فاطمة رضي الله عنها إلى النبي صلى الله عليه وسلم تسأله خادماً، فقال لها: «اللهم رب السماوات السبع، ورب الأرض ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، نعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر». وأخرجه مسلم وأبو داود (٥٠٥١)، والترمذي (٣٤٠٠)، عن خالد الطحان، عن سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا إذا أخذنا مضجعنا أن نقول... وذكر مثله.

وأخرجه مسلم، والنسائي في «عمل اليوم والليلة»، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» وابن حبان (٥٥١٢)، والبيهقي في «الأسماء» (ص٢٩٤)، والبغوي في «تفسيره» (٤ م ٢٩٣)، عن جرير بن عبد الحميد. وأخرجه أحمد (٥٣٦/٢)، وابن أبي شيبة (٢٩٣١٣)، وعبدالغني المقدسي في كتاب «الترغيب في الدعاء» (٩٩)، عن حماد بن سلمة. وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٢١٢)، وأبو داود (٥٠٥١)، وأحمد (٣٨١/٢)، عن وهيب بن خالد، وأخرجه ابن ماجة (٣٨٧٣)، والطبراني في «الدعاء» (٢٦١) عن عبد العزيز بن مختار، والحاكم (٥٤٦/١)، عن يوسف بن عبد الرحمن؛ كلهم عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه عن أبي هريرة. وله عندهم ألفاظ.

وقفات مع القصة في كتاب الله

نزول عيسى ابن مريم عليه السلام في آخر الزمان (١)

لماذا اختص الله عيسى عليه السلام بالنزول في آخر الزمان؟

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله مالك الملك، مدبر الأمر، يفعل ما يشاء ويختار، والصلاة والسلام على النبي المختار، وعلى آله وأصحابه الأبرار، وبعدُ:

فقد يتساءل البعض لماذا ينزل عيسى عليه السلام دون غيره من الأنبياء في آخر الزمان؟ وأردت بالإجابة عن هذا السؤال مدخلاً للحديث عن نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان، هذا الحدث الذي تنتظره الأمم الثلاث؛ اليهود، والنصارى، والمسلمون، واتفقت الأمم الثلاث على نزوله.وسنشير إن شاء الله فيما سيأتي إلى وجوه الاتفاق والاختلاف، والصواب والخطأ، والحق والباطل في ذلك، فقضية نزول عيسى ابن مريم ليست فقط عَلَمًا من أشراط الساعة بل لها علاقة وثيقة بالواقع الذي نعيشه، وبالصراع القائم الآن في العالم وفي المنطقة التي اصطلحوا على تسميتها بـ «الشرق الأوسط»، وبمستقبل الصراع فيها، بل لما يحدث في العالم بأسره من أحداث مهمة بين يدي الساعة، وفي حسم الصراع القائم بين الحق والباطل والأمن والسلام، والتمكين لدين الله في الأرض.

وكل هذه الموضوعات سنتحدث عنها تباعًا؛ من خلال حديثنا عن عيسى عليه السلام ونزوله إلى الأرض، وأدلة نزوله من الكتاب والسنة، والرد على المشككين، ومن توقيت نزوله ومكان نزوله وصفة نزوله وأعماله ودعوته، وغير ذلك مما يتعلق بهذه القضية المهمة.

ونستعين بالله ونبدأ بالإجابة عن السؤال الذي طرحناه: لماذا عيسى بالذات من دون الأنبياء سينزل في آخر الزمان؟

أقول وبالله التوفيق: إن الله سبحانه وتعالى جعل في عيسى عليه السلام وأمه آية للعالمين، قال الله تعالى: «وَالَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ» [الأنبياء: ٩١]، وقال سبحانه: «وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ» [المؤمنون:٥٠]، وقال الله تعالى: «وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا» [مريم: ٢١]، وهكذا اقتضت حكمة العليم الحكيم أن يجعل في عيسى عليه السلام آية تدل على طلاقة قدرته، وأنه سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء وقتما يشاء وكيفما شاء.

اختلاف أهل الكتاب في ولادته ورسالته

جعل الله في ولادة سبحانه ولادة عيسى من أم بغير أب آية، وجعل من حديثه في المهد آية، وجعل في رعايته لأمه وحفظه- سبحانه- لها،

وربطه على قلبها والدفاع عنها آية، وجعل في مبعث عيسى آية، وفي حياته ودعوته آيات؛ من إحياء الموتى لإبراء المرضى، والإخبار بما يأكلون وما يدخرون، وإخبارهم ببعض الغيوب، وتبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم، إلى غير ذلك.

ثم جعل في رفعه إليه آية، وكذلك في إنزاله آخر الزمان آية، لكن حال الناس مع آيات الله مختلف؛ فمنهم من يهتدي بها وينال بها رحمة ربه، ومنهم من يُعرض عنها وما أكثرهم!! قال الله تعالى: «وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ» [يوسف: ١٠٣]، وقال سبحانه: «وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ» [يوسف: ١٠٥].

والآيات التي صاحَبَت عيسى عليه السلام في مولده ونشأته وبعثته مع كثرتها قابلها بنو إسرائيل بالكفر والضلال إلا قليلاً منهم، قال الله تعالى: «فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» [مريم: ٣٨].

وهذه الآيات جاءت في أعقاب الحديث عن عيسى عليه السلام، وكونه عبد الله ورسوله وداعيًا إلى توحيده، لكن قومه اختلفوا في شأنه اختلافًا كبيرًا:

- فطائفة كفرت به، واتهموا أمه عليها السلام بالزنى، واتهموا عيسى بالسحر، وكفروا بنبوته ورسالته وهم اليهود.

- وقسم آمن به وهم النصارى، ولكنهم أيضًا اختلفوا في شأنه على أقسام، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: «فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ» [مريم: ٣٧] قال: «أي اختلف قول أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فصممت طائفة منهم وهم جمهور اليهود- عليهم لعائن الله- على أنه ولد زانية، وقالوا كلامه سحر، وقالت طائفة أخرى: إنما تكلم الله، وقال آخرون: بل هو ابن الله، وقال آخرون: هو ثالث ثلاثة، وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله، وهذا قول الحق الذي أرشد الله إليه المؤمنين». اهـ.

فاليهود كفروا كفرًا واضحًا بعيسى واتهموا أمه عليها السلام، والنصارى ضلوا ضلالاً بعيدًا بقولهم هو إله أو ابن الله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

اختلافهم في رفعه إلى الله وقتله:

قال الله عز وجل في سياق حديثه عن اليهود وإبطال مزاعمهم: «فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا» [النساء: ١٥٥- ١٥٨]، كان من أمر اليهود حين كفروا بعيسى عليه السلام وطاردوه واضطهدوه ووشوا به إلى ملك دمشق، وكان مشركًا من عبدة الكواكب، فأمر بصلب عيسى عليه السلام.

الحكمة من نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان

قال ابن كثير رحمه الله: هذا إسناده صحيح إلى ابن عباس، ورواه النسائي عن أبي كريب عن أبي معاوية بنحوه، وكذا ذكره غير واحد من السلف. اهـ. من «تفسير ابن كثير».(هذا الحديث يتكلم عن العقيدة في بشريته وليس عن الرفع)

فما من نبي كثر الاختلاف حوله في حياته، وقبل موته مثل عيسى عليه السلام، فمن هنا- والله أعلم- نتلمس الحكمة من نزوله في الأسباب الآتية:

أولها: رد أباطيل اليهود والنصارى في أمر مولده، فالرد على اليهود في براءة أمه مما اتهموها به وهي منه براء، وفي كفرهم بعيسى وهو عبد الله ورسوله. وفي قولهم: إنهم قتلوه «وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ» [النساء: ١٥٧].

والرد على النصارى في افترائهم عليه وقولهم إنه الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، أنه حين ينزل يكون من أهم أعماله: كسر الصليب وقتل الخنزير. روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير ويضع الجزية...» الحديث.

وكسر الصليب إشارة إلى فساد عقيدة النصارى التي تقوم على عقيدة الصلب، وقتل الخنزير إشارة إلى فساد شريعتهم التي استحلوا فيها ما حرَّم الله.

وللحديث بقية إن شاء الله.

باب التراجم



الزبير بن العوام: حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا، والصلاة والسلام على نبينا محمد، الذي أرسله ربه هادياً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

إعداد/ صلاح نجيب الدق

أما بعد: فإن الزبير بن العوام، هو حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهو أحد أصحاب نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الذين قال مدحهم الله تعالى في كتابه العزيز قائلاً: «وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» (الحديد: ١٠) وأحد العشرة الذين بشرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، من أجل ذلك أحببت أن أُذكِّرَ نفسي وإخواني الكرام بشيء من سيرته العطرة، وتاريخه المشرق المجيد، لعلنا نسير على ضوئه فنسعد في الدنيا و الآخرة. فأقول وبالله التوفيق:

اسم الزبير ونسبه:

الزبير بن العوام بن خُويلد بن أسد بن عبد العُزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي الأسدي.

كنيته: أبو عبد الله.

أمه: صفية بنت عبد المطلب، عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو ابن عمة رسول الله، وابن أخي خديجة بنت خويلد زوج النبي صلى الله عليه وسلم. (أسد الغابة لابن الأثير ج٢ص ١٠٢).

قال عروة بن الزبير: كان الزبير طويلاً تخط رجلاه الأرض إذا ركب الدابة، وكانت أمه صفية تضربه ضرباً شديداً وهو يتيم، فقيل لها: قَتَلْته، أَهْلَكْته، فقالت: إنما أضْربُه لكي يَدِبَّ × ويَجرَّ الجيشَ ذا الجلَبْ. (سير أعلام النبلاء للذهبي ١ص٤٥).

إسلام الزبير بن العوام:

أسلم الزبير بن العوام وهو ابن ست عشرة سنة.كان عم الزبير يعلق الزبير ويدخن عليه النار، وهو يقول له: ارجع إلى دين الآباء والأجداد، فيقول الزبير: لا أكفر أبدا. (الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ص ٧٥) (حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني ج ١ص ٨٩).

زوجات الزبير وأولاده:

تزوج الزبير ست نسوة، ورزقه الله تعالى من الأولاد عشرين: من الذكور: أحد عشر، ومن الإناث: تسع، وهم:

عبد الله وعروة والمنذر وعاصم والمهاجر وخديجة الكبرى وأم الحسن وعائشة وأمهم أسماء بنت أبي بكر الصديق وخالد وعمرو وحبيبة وسَوْدة وهند وأمهم أم خالد وهي أمة بنت خالد بن سعيد بن العاص بن أمية ومصعب وحمزة ورملة وأمهم الرباب بنت أنيف بن عبيد بن مصاد بن كعب بن عليم بن جناب من كلب وعبيدة وجعفر وأمهما زينب وهي أم جعفر بنت مرثد بن عمرو بن عبد عمرو بن بشر بن عمرو بن مرثد بن سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة وزينب وأمها أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وخديجة الصغرى وأمها الحلال بنت قيس بن نوفل بن جابر بن شجنة بن أسامة بن مالك بن نصر بن قعين من بني أسد. (الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ص ٧٤).

قال عروة بن الزبير: قال الزبير بن العوام: إن طلحة بن عبيد الله التيمي يُسمي بنيه بأسماء الأنبياء وقد علم أن لا نبي بعد محمد، وإني أُسمي بَنِيَّ بأسماء الشهداء لعلهم أن يستشهدوا. فسمى عبد الله بعبد الله بن جحش والمنذر بالمنذر بن عمرو وعروة بعروة بن مسعود وحمزة بحمزة بن عبد المطلب وجعفراً بجعفر بن أبي طالب ومصعباً بمصعب بن عمير وعبيدة بعبيدة بن الحارث وخالداً بخالد بن سعيد وعمراً بعمرو بن سعيد بن العاص قتل يوم اليرموك. (الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ص ٧٤)

علم الزبير بن العوام:

روى الزبير ثمانية وثلاثون حديثا، منها في " الصحيحين " حديثان، وانفرد البخاري بسبعة أحاديث. (سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١ص ٦٧).

قال عبد الله بن الزبير: قلت للزبير ما لي لا أسمعك تحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلمكما يحدث فلان وفلان؟ قال أما إني لم أفارقه أسلمت ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من كذب علي فليتبوأ مقعدا من النار. (الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٣ص ٧٩).

مناقب الزبير بن العوام:

(١) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ:قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْأَحْزَابِ: مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ: فَقَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا. ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ؟ فَقَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا. ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ؟ فَقَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيَّ وَإِنَّ حَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ. (البخاري حديث:٤١١٣) والحواري هو: المؤيد - الناصر - المخلص في كل شيء.

(٢) عن هشام بن عروة أن غلاماً مر بعبد الله بن عمر فسئل من هو؟ فقال: ابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال ابن عمر إن كنت من ولد الزبير، وإلا فلا. قال: فسُئل: هل كان أحدٌ يُقال له حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم غير الزبير؟ قال: لا أعلمه. (الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ص ٧٨).

(٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ عَلَى حِرَاءٍ(اسم جبل) هُوَ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ فَتَحَرَّكَتْ الصَّخْرَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اهْدَأْ فَمَا عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ. (مسلم حديث:٢٤١٨).

(٤) عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا «الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمْ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ» قَالَتْ لِعُرْوَةَ يَا ابْنَ أُخْتِي كَانَ أَبَوَاكَ مِنْهُمْ الزُّبَيْرُ وَأَبُو بَكْرٍ لَمَّا أَصَابَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَصَابَ يَوْمَ أُحُدٍ وَانْصَرَفَ عَنْهُ الْمُشْرِكُونَ خَافَ أَنْ يَرْجِعُوا قَالَ مَنْ يَذْهَبُ فِي إِثْرِهِمْ فَانْتَدَبَ مِنْهُمْ سَبْعُونَ رَجُلًا قَالَ كَانَ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَالزُّبَيْرُ. (البخاري حديث:٤٠٧٧)

(٥) كان الزبير بن العوام أحد الستة، أصحاب الشورى، الذين توفي عنهم النبي صلى الله عليه وسلم، وهو عنهم راضٍ. قال عمر بن الخطاب: والله لودت أني خرجت منها كفافاً، لا علَيَّ، ولا لي وأن صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت لي، ولو أن لي طلاع الأرض ذهباً لافتديت به من هَوْل المطلع، وقد جعلتها شورى في عثمان وعلي وطلحة و الزبير و عبد الرحمن بن عوف وسعد. (تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٢٦).

رغبة عثمان بن عفان في استخلاف الزبير:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ أَخْبَرَنِي مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ قَالَ: أَصَابَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رُعَافٌ شَدِيدٌ سَنَةَ الرُّعَافِ حَتَّى حَبَسَهُ عَنْ الْحَجِّ وَأَوْصَى فَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ قَالَ اسْتَخْلِفْ قَالَ وَقَالُوهُ قَالَ نَعَمْ قَالَ وَمَنْ فَسَكَتَ فَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ آخَرُ أَحْسِبُهُ الْحَارِثَ فَقَالَ اسْتَخْلِفْ فَقَالَ عُثْمَانُ وَقَالُوا فَقَالَ نَعَمْ قَالَ وَمَنْ هُوَ فَسَكَتَ قَالَ فَلَعَلَّهُمْ قَالُوا الزُّبَيْرَ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهُ لَخَيْرُهُمْ مَا عَلِمْتُ وَإِنْ كَانَ لَأَحَبَّهُمْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. (البخاري حديث:٣٧١٧)

بر الزبير بن العوام بأبناء الصحابة:

قال هشام بن عروة: أوصى إلى الزبير سبعةٌ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم منهم: عثمان وعبد الرحمن بن عوف والمقداد وابن مسعود وغيرهم. وكان يحفظ على أولادهم مالهم وينفق عليهم من ماله.(أسد الغابة لابن الأثيرج٢ص ١٠٥).

زهد الزبير بن العوام:

(١) قال سعيد بن عبد العزيز:كان للزبير بن العوام ألف مملوك يؤدون إليه الخراج فكان يقسمه كل ليلة ثم يقوم إلى منزله وليس معه منه شيء. (حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني ج ١ص ٩٠).

(٢) باع الزبير دارا له بستمائة ألف، فقيل له يا أبا عبد الله غُبنْتَ (خسرت) قال: كلا. والله لتعلمن أني لم أغبن(أخسر) هي في سبيل الله. (صفة الصفوة لابن الجوزي ج١ص ٣٤٣:٣٤٤).

جهاد الزبير بن العوام:

هاجر الزبير بن العوام إلى أرض الحبشة الهجرتين جميعاً، ثم إلى المدينة، ولم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال عروة بن الزبير:كانت على الزبير عمامة صفراء معتجراً بها يوم بدر فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن الملائكة نزلت على سيماء(علامة) الزبير. (الطبقات الكبرى لابن سعد ج٣ص ٧٦).

(١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ:كُنْتُ يَوْمَ الْأَحْزَابِ جُعِلْتُ أَنَا وَعُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ فِي النِّسَاءِ فَنَظَرْتُ فَإِذَا أَنَا بِالزُّبَيْرِ عَلَى فَرَسِهِ يَخْتَلِفُ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ

مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا فَلَمَّا رَجَعْتُ، قُلْتُ: يَا أَبَتِ رَأَيْتُكَ تَخْتَلِفُ. قَالَ: أَوَ هَلْ رَأَيْتَنِي يَا بُنَيَّ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ يَأْتِ بَنِي قُرَيْظَةَ فَيَأْتِينِي بِخَبَرِهِمْ؟ فَانْطَلَقْتُ فَلَمَّا رَجَعْتُ جَمَعَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبَوَيْهِ فَقَالَ: فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي. (البخاري حديث:٣٧٣٠، ومسلم حديث:٢٤١٦).

(٢) عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا لِلزُّبَيْرِ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ: أَلَا تَشُدُّ(تهجم على العدو) فَنَشُدَّ مَعَكَ، فَحَمَلَ عَلَيْهِمْ(على جيش الروم) فَضَرَبُوهُ ضَرْبَتَيْنِ عَلَى عَاتِقِهِ بَيْنَهُمَا ضَرْبَةٌ ضُرِبَهَا يَوْمَ بَدْرٍ. قَالَ عُرْوَةُ فَكُنْتُ أُدْخِلُ أَصَابِعِي فِي تِلْكَ الضَّرَبَاتِ أَلْعَبُ وَأَنَا صَغِيرٌ. (البخاري حديث:٣٧٢١).

(٣) عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ الزُّبَيْرُ:لَقِيتُ يَوْمَ بَدْرٍ عُبَيْدَةَ بْنَ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ وَهُوَ مُدَجَّجٌ (مغطى بالسلاح) لَا يُرَى مِنْهُ إِلَّا عَيْنَاهُ وَهُوَ يُكْنَى أَبُو ذَاتِ الْكَرِشِ فَقَالَ أَنَا أَبُو ذَاتِ الْكَرِشِ فَحَمَلْتُ عَلَيْهِ بِالْعَنَزَةِ (وهي الحربة) فَطَعَنْتُهُ فِي عَيْنِهِ فَمَاتَ قَالَ هِشَامٌ فَأُخْبِرْتُ أَنَّ الزُّبَيْرَ قَالَ لَقَدْ وَضَعْتُ رِجْلِي عَلَيْهِ ثُمَّ تَمَطَّأْتُ فَكَانَ الْجَهْدَ أَنْ نَزَعْتُهَا وَقَدْ انْثَنَى طَرَفَاهَا قَالَ عُرْوَةُ فَسَأَلَهُ إِيَّاهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْطَاهُ فَلَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَهَا ثُمَّ طَلَبَهَا أَبُو بَكْرٍ فَأَعْطَاهُ فَلَمَّا قُبِضَ أَبُو بَكْرٍ سَأَلَهَا إِيَّاهُ عُمَرُ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا فَلَمَّا قُبِضَ عُمَرُ أَخَذَهَا ثُمَّ طَلَبَهَا عُثْمَانُ مِنْهُ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا فَلَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ وَقَعَتْ عِنْدَ آلِ عَلِيٍّ فَطَلَبَهَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ فَكَانَتْ عِنْدَهُ حَتَّى قُتِلَ.(البخاري حديث: ٣٩٩٨).

قال سعيد بن المسيب: أول مَن سَلَّ سيفاً في سبيل الله الزبير بن العوام(وكان عمره اثنتا عشرة سنة)، بينما هو بمكة إذ سمع صوتاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قتل، فخرج و في يده السيف صلتا فتلقاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: مالك يا زبير؟قال: سمعت أنك قد قتلت. قال: فما كنت صانعا؟ قال: أردت والله أن أستعرض أهل مكة. قال فدعا له النبي صلى الله عليه وسلم. (صفة الصفوة لابن الجوزي ج١ص ٣٤٦).

قال عمرو بن مصعب بن الزبير: قاتل الزبير مع رسول الله صلى الله عليه.وسلم وهو ابن اثنتي عشرة سنة فكان يحمل على القوم. (صفة الصفوة لابن الجوزي ج١ص ٣٤٦).

موقف الزبير في حروب الفتنة:

قال عبد الرحمن بن أبي ليلى:انصرف الزبير يوم الجمل عن عليٍّ بن أبي طالب، فلقيه ابنه عبد الله فقال: جُبْنًا جبنا قال: يا بني قد علم الناس أني لست بجبان ولكن ذكرني علي شيئاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلفت أن لا أقاتله. فقال: دونك غلامك فلانا فقد أعطيت به عشرين ألفا كفارة عن يمينك. قال: فولى الزبير وهو يقول:

تَرْكُ الأمورِ التي أخشى عواقبَها
في الله أحْسَنُ في الدنيا وفي الدِّين

(حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني ج ١ص ٩١).

استشهاد الزبير بن العوام:

عن عكرمة عن ابن عباس أنه أتى الزبير فقال: أين صفية بنت عبد المطلب حيث تقاتل بسيفك علي بن أبي طالب بن عبد المطلب؟ قال: فرجع الزبير فلقيه عمرو بن جرموز فقتله، واحتز رأسه وذهب به إلى علي بن أبي طالب ورأى أن ذلك يحصل له به حظوة عنده فاستأذن فقال علي: لا تأذنوا له، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " بشر قاتل ابن صفية بالنار "

وأخذ عليٌّ بن أبي طالب سيف الزبير وقال: سيفٌ والله طالما جلا به عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم الكرب. وقال عليٌّ بن أبي طالب: إنـي لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير من الذين قال الله في حقهم(وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ) (الحجر:٤٧).

قال موسى بن طلحة قال: كان علي، والزبير، وطلحة، وسعد، عذار عام واحد.(يعني ولدوا في سنة واحدة).(سير أعلام النبلاء للذهبي ج ١ص٤٤).

دُفنَ الزبير.رحمه الله - بوادي السباع. وجلس عليٌّ بن أبي طالب يبكي عليه هو وأصحابه. توفي الزبير سنة ست وثلاثين من الهجرة. (الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٣ص:٨١:٨٤) (البداية والنهاية لابن كثير ج٢٦٠:٢٦١).

نسأل الله تعالى أن يجمعنا به في الفردوس الأعلى من الجنة، بحبنا له، وإن لم نعمل بمثل عمله.

وصلى اللهُ وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه، والتابعينَ لهم بإحسان إلى يوم الدين.

من أنواع التربية المطلوبة

التربية على الآداب النبوية والسنن المصطفوية



إعداد/ د. أحمد فريد

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإن مما ينبغي أن يتربى عليه الشباب المسلم الذي يهدف إلى إقامة المجتمع المسلم، وإعادة الخلافة على منهاج النبوة: " الآداب النبوية والسنن المصطفوية"، وهذه الآداب كثيرة، منها ما يتلقاه المسلم في بيته ومدرسته بالقدوة الحسنة، ولكننا في أزمنة عزت فيها الأسوة الحسنة، وأقفرت منها أكثر بيوت المسلمين، واستبدل بكثير منها الآداب الغربية التي لا علاقة لها بديننا، والأذواق المستوردة من حضارة الغرب، كنتيجة طبيعية لانتشار الأجهزة كالفيديو والتلفاز وأجهزة استقبال البث المباشر، التي أطاحت بكثير من القيم الإسلامية، والآداب النبوية، وقتلت غيرة الرجال، وأضاعت حياء النساء، وصارت مجتمعات المسلمين لا تفترق كثيرًا عن المجتمعات الغربية الغير مسلمة.

وهذه جملة من الآداب الإسلامية التي ينبغي الاهتمام بها:

١- آداب بر الوالدين.
٢- آداب صلة الرحم.
٣- آداب الضيافة.
٤- آداب الجوار.
٥- آداب طلب العلم.
٦- آداب النظر.

١- آداب بر الوالدين:

قال تعالى: (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا) (الإسراء:٢٣-٢٤)

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: " سألت النبي صلى الله عليه وسلم: أي العمل أحب إلى الله؟ قال صلى الله عليه وسلم: " الصلاة على وقتها ". قلت: ثم أي؟ قال: " ثم بر الوالدين ". قلت: ثم أي؟ قال: " الجهاد في سبيل الله ". [أخرجه البخاري (٥٢٧، ٥٩٧٠)، ومسلم (٧٨٢)].

والبر: اسم جامع للخير، وهو ضد العقوق، ومعناه الصلة وفعل الخير والتوسع فيه،

واللطف والطاعة.
ومن برهما: النفقة عليهما إذا احتاجا؛ لقوله عز وجل:(وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا) (لقمان:١٥)، وقوله عز وجل: (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) (الإسراء: ٢٣).
ومن برهما: توقيرهما واحترامهما، عن هشام بن عروة عن أبيه - أو عن غيره أن أبا هريرة رضي الله عنه أبصر رجلين فقال لأحدهما:" ما هذا منك؟" فقال: أبي، فقال له:" لا تسمِّه باسمه، ولا تمش أمامه، ولا تجلس قبله".(صحيح الأدب المفرد رقم: ٣٢)
ومن برهما: دعوتهما إلى الله عز وجل، كما في حديث أبي هريرة وأمه . [انظر صحيح مسلم (٢٤٩١)].
ومن برهما: الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما بعدهما.
عن محمد بن سيرين قال: " كنا عند أبي هريرة ليلة، قال: اللهم اغفر لأبي هريرة ولأمي، ولمن استغفر لهما. قال محمد: فنحن نستغفر لهما حتى ندخل في دعوة أبي هريرة".(أتمنى أن توثق فمن الناقل عن ابن سيرين؟)
ومن برهما: صلة أهل ودهما. ففي " الصحيح " عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن من أبر البر: صلة أهل ود أبيه بعد أن يولي". [مسلم (٢٥٥٢)].
ومن برهما: قضاء دَيْنهما، والحج عنهما، والوفاء بنذرهما.
عن ابن عباس قال: " أمرت امرأة سنان بن سلمة الجهني أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمها ماتت ولم تحج، أيجزئ عن أمها أن تحج عنها؟ قال: " نعم، لو كان على أمها دين فقضته عنها، ألم يجزئ عنها؟ فلتحج عن أمها" [أخرجه أحمد (٢٥١٤)، والنسائي (٢٦٣٣)، وصححه الألباني في " صحيح سنن النسائي" (٢٤٧٠)].

٢- آداب صلة الرحم:

قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ» (النساء:١).
أي: اتقوا الله بطاعتكم إياه، واتقوا الأرحام أن تقطعوها، ولكن بروها وصلوها.
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ من القطيعة. قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك، قالت: بلى قال: فذاك لك". ثم قال رسول الله: " اقرءوا إن شئتم: « فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا » (محمد:٢٢-٢٤). وعن أنس رضي الله عنه مرفوعًا: " من أحب أن يُبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه". [البخاري (٥٩٨٦)، ومسلم (٢٥٥٧)].

٣- آداب الضيافة:

عن أبي شريح العدوي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، جائزته يوم وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، فما بعد ذلك فهو صدقة، ولا يحل له أن يثوي عنده حتى يحرجه". [البخاري (٥١٨٦) ومسلم (٤٧، ٤٨)].
قال ابن بطال: " سُئل عنه مالك؟ فقال: يُكرمه ويُتحفه يومًا وليلة. وثلاثة أيام ضيافة. قلت: واختلفوا؛ هل الثلاث غيرها أو بعض منها؟"
فقال أبو عبيد:" يتكلف له في اليوم الأول بالبر والإلطاف، وفي الثاني والثالث يقدم له ما حضره، ولا يزيده على عادته، ثم يعطيه ما يجوز به يومًا وليلة، وتسمى الجيزة، وهي قدر ما يجوز به المسافر من منهل إلى منهل، ومنه الحديث الآخر:" أجيزوا الوفد بنحو مما كنت أجيزهم". [أخرجه البخاري (٣٠٥٣) ومسلم (١٦٣٧) واللفظ لأبي داود (٣٠٢٩)].

٤- آداب الجوار:

عن أبي شريح الخزاعي العدوي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن الله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت ".[متفق عليه].
قوله:" من كان يؤمن بالله واليوم الآخر" المقصود المبالغة في إتيان هذه الأفعال كما تقول لولدك: إن كنت ابني فاطعني؛ تحريضًا له على الطاعة، وتخصيص اليوم الآخر بالذكر؛ لأن رجاء الثواب والعقاب كله راجع إلى الإيمان باليوم الآخر، ومن لا يعتقده لا يرتدع عن شر ولا يقدم على خير، وتكريره

للاهتمام والاعتناء بكل خصلة.

وقوله: " فليحسن إلى جاره" والإحسان إليه أن يعينه على ما يحتاج إليه ويدفع عنه السوء ويخصه بالنيل لئلا يستحق الوعيد والويل، وقال النبي صلى الله عليه وسلم في رواية: " فلا يؤذ جاره"، والأذى بغير حق محرم على كل أحد لكن في حق الجار أشد تحريماً، وفي الحديث: " فليكرم ضيفه"، والإكرام بطلاقة الوجه، والكلام الطيب، والإطعام، وقد فسر عطاء الخراساني حق الجار بالإعانة والإقراض والعيادة، والتعزية، والتهنئة، واتباع الجنائز، وألا تستطيل عليه في البناء حتى تحرمه من الريح والشمس مثلا" [فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد (٩١/١) لفضل الله الجيلاني].

٥- آداب طلب العلم:

- ينبغي لطالب العلم أن يستحضر نية الإخلاص في الطلب؛ فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من تعلم علمًا مما يُبتغى به وجه الله لا يطلبه إلا ليصيب به عرض الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة". [رواه أحمد (٨٢٥٢)، وأبو داود (٣٦٦٤) وصححه الألباني].

- وينبغي له أن يطلب العلم النافع، وهو علم الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، فلا يطلب علم الكلام والفلسفة، ولا ما ضرره أكثر من نفعه.

- وينبغي له أن يختار من يتعلم منه، ولا يتعلم إلا ممن ظهرت ديانته، واشتهرت صيانته.

- وينبغي له أن ينظر إلى معلمه بعين الاحترام والتوقير، فإن هذا أقرب إلى الانتفاع به، قال الربيع: "ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إليَّ هيبة له".

- وينبغي له أن يتجنب الأسباب الشاغلة عن التحصيل إلا سببًا لا بد منه للحاجة فالعلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك.

- وينبغي له ألا يرفع صوته رفعًا بليغًا من غير حاجة، ولا يضحك ولا يكثر الكلام من غير حاجة، ولا يعبث بيده، ولا يلتفت يمينا ولا شمالاً من غير حاجة.

- ومن ذلك أن يدخل على شيخه في صورة طيبة، متطهرًا ملتزمًا بالآداب الشرعية الظاهرة والخفية؛ كالتنظيف بإزالة الأوساخ ونتف الإبط وإزالة الروائح الكريهة. وتسريح اللحية والتطيب.

- ومن ذلك أن يعمل بما يتعلمه، قال بعضهم: "يهتف العلم بالعمل؛ فإن أجابه وإلا ارتحل"، ومن العمل بالعلم: تعليمه، والله الموفق للطاعات والهادي ولأعلى الدرجات.

٦- آداب النظر:

قال تعالى: «قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ» (النور: ٣٠).

وقد أمر الله عز وجل بغض البصر وصيانة الفرج، وقرن بينهما في معرض الأمر وبدأ بالغض لأن العين رائد للقلب كما قيل:

ألم تر أن العين للقلب رائد
فما تألف العينان فالقلب آلف

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " كُتب على ابن آدم نصيبه من الزنا، مدرك ذلك لا محالة؛ فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرِّجل زناها الخُطى، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج ويكذبه". [البخاري (٦٢٤٣، ٦٦١٢) ومسلم (٢٦٥٧)].

وعن جرير رضي الله عنه قال: " سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجأة فقال: "اصرف بصرك" [مسلم (٢١٥٩)].

قال النووي: " ومعنى نظر الفجأة أن يقع بصره على الأجنبية من غير قصد؛ فلا إثم عليه أن يصرف بصره في الحال، فإن صرف في الحال فلا إثم عليه، وإن استدام النظر أثم لهذا الحديث، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره بصرف بصره مع قوله تعالى: (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ) [شرح النووي على صحيح مسلم (١٣٩/١٤)].

وتتأكد هذه الآداب الشرعية مع كثرة تبرج النساء، وقلة حيائهن؛ فالواجب على المسلم أن يحرص على سلامة قلبه، ورضا ربه بغض بصره، فالنظر سهم مسموم من سهام إبليس، نسأل الله السلامة والعافية، وللحديث بقية إن شاء الله.

واحة التوحيد

من نور كتاب الله

لعدم وقوع البغضاء بيننا

قال تعالى: « وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا» [الإسراء: ٥٣].

من دلائل النبوة

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: إن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر مرتين. [صحيح مسلم ٢٨٠٢].

من فضائل الصحابة

موقف أهل البيت من الصحابة

عن بسام الصيرفي، قال: سألت أبا جعفر عن أبي بكر وعمر، فقال: والله إني لأتولاهما وأستغفر لهما، وما أدركت أحدًا من أهل بيتي إلا وهو يتولاهما. [سير أعلام النبلاء ٤/٤٣٠].

من أقوال السلف

عن الأوزاعي قال: إذا ظهرت البدع فلم ينكرها أهل العلم صارت سنة.

وعن عمر بن عبد العزيز قال: من عمل على غير علم، كان ما يفسد أكثر مما يصلح. [الطبقات الكبرى لابن سعد ٥/٣٧٢].

نصيحة لأهل العلم

قال وهب بن منبه لعطاء الخراساني: كان العلماء قبلنا قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم، فكانوا لا يلتفتون إلى دنياهم، وكان أهل الدنيا يبذلون دنياهم في علمهم، فأصبح أهل العلم منا اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة في دنياهم، وأصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم؛ لما رأوا من سوء موضعه عندهم. [سير أعلام النبلاء ٤/٥٤٩].

من غريب الحديث

لفظة (قعا) فيه «أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن الإقعاء في الصلاة» وفي رواية «نهى أن يقعي الرجل في الصلاة» الإقعاء: أن يُلصق الرجل أليتيه بالأرض، وينصب ساقيه وفخذيه، ويضع يديه على الأرض كما يقعي الكلب أو يضع أليتيه علي عقبيه. [النهاية في غريب الحديث ٤/١٣٤].

من هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم

إحسان الظن بالله تعالى

عن أنس- رضي الله عنه- أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «كيف تجدك؟». قال: والله يا رسول الله إني أرجو الله، وإني أخاف ذنوبي. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وأمنه مما يخاف» [سنن الترمذي ٩٨٣ وحسنه الألباني].

من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم

عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ: «اللهم إني أعوذ بك من فتنة النار ومن عذاب النار، وأعوذ بك من فتنة القبر، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة الغنى، وأعوذ بك من فتنة الفقر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال». [صحيح البخاري ٦٣٧٦].

إعداد: علاء خضر

من سيَر الخلفاء

تفقد هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي بعض ولده فلم يحضر الجمعة، فقال: ما منعك من الصلاة؟ قال: نفقت دابتي، قال: أفعجزت عن المشي؟ فمنعه الدابة سنة.

[تاريخ الطبري ٢١٩/٤].

حكم ومواعظ

عن قيس بن أبي حازم: أن عبد الله بن رواحة بكى، فبكت امرأته، فقال لها: «ما يبكيك؟» فقالت: رأيتك بكيت، فبكيت. فقال: «إني أنبئت أني وارد، ولم أنبأ أني صادر».

[الزهد لوكيع ٣٧/١].

انظروا ماذا يفعل العلم بصاحبه؟!

عن أبي العالية قال: كنت آتي ابن عباس فيرفعني على السرير، وقريش أسفل من السرير، فتغامزت بي قريش، وقالوا: يرفع هذا العبد على السرير، ففطن بهم ابن عباس فقال: إن هذا العلم يزيد الشريف شرفًا، ويجلس المملوك على الأسرة. [تهذيب الكمال].

أحاديث باطلة لها آثار سيئة

(من صافحَ يهوديًا أو نصرانيًا؛ فليتوضأ أو يَغسلْ يدَه)، وأخطأ من قال لا يحل الشرب من أوانيهم، ولا مؤاكلتهم، ولا لبس ثيابهم، فقد صح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والسلف خلافه. [السلسلة الضعيفة للألباني ٢١٨/١٣].

دراسات شرعية

أثر السياق في فهم النص

ما بين الكليات العامة والأدلة الخاصة

الحلقة (٥٥)

إعداد/ متولي البراجيلي

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده:

وبعد فقد ذكرنا أن الكليات من قرائن السياق العامة التي تستخدم لفهم النصوص الشرعية وتوجيه الأدلة الخاصة. وقمنا بتعريف الكليات العامة والأدلة الخاصة، وأن الكليات تنقسم إلى ثلاثة أقسام، هي: الضروريات الخمس، الحاجيات ، التحسينيات . وأن الكليات تُعرف بطريقين: طريق النص (الكليات النصية)، وطريق الاستقراء (الكليات الاستقرائية).

وذكرنا أمثلة للكليات النصية، وبدأنا الكلام عن الكليات الاستقرائية، ونستأنف البحث في الكليات الاستقرائية: وهي الكليات التي لم يرد بشأنها دليل خاص، وذلك يكون بتتبع الأدلة المختلفة الأغراض في كل باب من أبواب الفقه، ويضم بعضها إلى بعض فينتظم من مجموعها أمر واحد كلي تدور حوله تلك الأدلة.

مثال: الضرورات تبيح المحظورات: وهي إحدى القواعد الكلية الفرعية، وهي قاعدة هامة يبنى عليها الكثير من الأحكام الشرعية وقد اختلف أهل العلم في هذه القاعدة، هل هي متفرعة من القاعدة الكبرى "المشقة تجلب التيسير" من جهة أن الضرورة فيها تمثل مشقة يخفف عنها باستباحة المحظور (المحرم)، أم هي متفرعة من القاعدة الكبرى " الضرر يُزال"، والتي يعبر عنها أحيانًا بصيغة " لا ضرر ولا ضرار"، من جهة أن التلبس بالضرورة تلبس بضرر ينبغي إزالته بدفعه أو رفعه.

لذا نجد من العلماء مثل ابن السبكي في كتابه " الأشباه والنظائر " ذكر القاعدة مرتين، مرة عند كلامه على قاعدة " المشقة تجلب التيسير "، وأخرى عند كلامه على قاعدة "الضرر يُزال" (انظر الأشباه والنظائر للسبكي ١/٤٥، ٤٩)، وربما تكون أقرب إلى قاعدة المشقة تجلب التيسير؛ لأن مضمون القاعدة يتعلق بالتيسير عند وجود الاضطرار، فالضرورة في هذه الحالة تمثل أعلى درجات المشقة. (انظر الوجيز في إيضاح القواعد الفقهية ص٢٣٤).

وبمعنى هذه القاعدة قال ابن القيم: ومن قواعد الشرع الكلية أنه "لا واجب مع عجز. ولا حرام مع ضرورة " (إعلام الموقعين ٢/١٧). ومعنى القاعدة: أن الممنوع شرعًا يُباح عند الحاجة الشديدة، وهي الضرورة، والضرورة: معناها

الوصول إلى حد الهلاك أو مقاربته.

أولا: أدلة القاعدة:

القاعدة لها أدلة كثيرة (وإن لم تكن نصًا خاصًا فيها) دلت على أن للمضطر حكمًا يخالف غيره، وأنه يباح له ما لا يباح لغيره ومن ذلك:

١- قوله تعالى: «فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» [البقرة: ١٧٣].

٢- قوله تعالى: «فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» [المائدة: ٣].

٣- قوله تعالى: «وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ» [الأنعام: ١١٩].

٤- قوله تعالى: «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان» [النحل:١١٦].

٥- قوله تعالى: «قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» [الأنعام:١٤٥]. فأفادت الآيات بأن التلبس بحالة الضرورة يبيح المحرم شرعًا.

ومن السنة: حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه: أن رجلاً نزل الحرة ومعه أهله وولده، فقال رجل: إن ناقة لي ضلت فإن وجدتها فأمسكها فوجدها فلم يجد صاحبها، فمرضت، فقالت امرأته: انحرها: فأبى، فنفقت (ماتت)، فقالت: اسلخها حتى نقدد (نقطع) شحمها ولحمها ونأكله. فقال: حتى أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتاه فسأله، فقال: فكلوها. قال: فجاء صاحبها فأخبره الخبر. فقال: هلا كنت نحرتها؟ قال: استحييت منك. (صحيح سنن أبي داوود)، وفي الحديث دليل على جواز أكل الميتة للمضطر، واختلفوا هل يجب ذلك عليه أم لا (انظر نيل الأوطار ٨/١٧٣).

ثانيا: عموم الأدلة التي تدل على يسر الشريعة أصلاً، وعلى التخفيف عند وجود العذر الطارئ، ومن ذلك: قوله تعالى: «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ» [البقرة: ١٨٥]. وقوله جل وعلا: «وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» [الحج: ٧٨] وقوله سبحانه: «وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا» [النساء:٤٣، المائدة: ٦].

أهمية القاعدة: قاعدة عظيمة لها فروع كثيرة يُستباح بها الحرام لعسر احتمال المكلف عسرًا يورد عليه من الضرر ما لا يقدر عليه، وفهم هذه القاعدة يحتاج إلى تصور قدر الضررين: الضرر الوارد عليك، وضرر الوقوع في الحرام، وهذا يحتاج إلى تأمل، فأي الجانبين كان أرجح، فالحكم له من أمثلة ذلك:

١- إنسان وقعت عليه غرامة مالية، وهو مخير بين السداد وبين السجن، فنظر فلم يجد من يقرضه ولا سبيل للسداد إلا أن يقترض بالربا، فلا شك أن ضرر السجن أكبر، فمخالطة المجرمين قد تؤثر على دينه ويخشى على زوجته وذريته، إلى غير ذلك من أضرار. فهذا مضطر أن يقترض بالربا عملاً بالقاعدة "الضرورات تبيح المحظورات".

٢- لو أشرف شخص على الهلاك جوعًا، ولم يجد إلا طعامًا محرمًا كالميتة، فإن الشرع جوّز له الأكل منها؛ دفعًا لضرورة هلاكه التي هي أشد عند الله من أكل الميتة.

٣- لو صال (اعتدى) إنسان أو حيوان على شخص، ولم يكن له دفعه إلا بقتله، فإنه يشرع له ذلك، لكن لا يلجأ إلى القتل ابتداءً وإنما يدفع أذاه عنه بالتدرج.

قيود على هذه القاعدة:

قيدت القاعدة بقيود وقواعد أخرى: منها قاعدة: "الضرورة تقدر بقدرها"، فلا يُباح للمضطر إلا بقدر ما يدفع عنه الضرورة، ومن قيودها: ألا تنقضي الضرورة عن المحظور، بمعنى أنه لا بد أن يكون البقاء على حالة الضرورة أشد من الإقدام على الأمر المحرم، حتى يمكن إعمال هذه القاعدة. فلو كانت حالة الضرورة مساوية في الشدة لحالة الإقدام على الأمر المحرم، فإن الضرورة حينئذ لا تبيح المحظور.

مثل: لو هُدد شخص بالقتل على أن يقتل شخصًا معصومًا، فإنه لا يجوز له الإقدام على القتل لدفع حالة الضرورة المتمثلة في قتله هو؛ لأن نفسه ليست أولى من نفس من يقدم على قتله.

ومن باب أولى إن كانت حالة الضرورة أنقص في الشدة من حالة الإقدام على الأمر المحرم فلا يجوز ارتكاب المحظور. مثل: لو هدد شخص بأخذ ماله إن لم يقتل شخصًا معصومًا، فلا يجوز له الإقدام على القتل، بدعوى أنه مضطر، فليست هذه حالة اضطرار.

- فالحاصل أن عندنا ثلاث حالات؛ حالتان لا يجوز فيها إعمال القاعدة، وهما:

١- أن تكون الضرورة أقل في الضرر من الوقوع في المحرم.
٢- أن تكون الضرورة مساوية في الضرر للوقوع في المحرم.
٣- والحالة الثالثة هي التي يجوز فيها إعمال القاعدة، وهي أن تكون الضرورة أشد ضررًا من الإقدام على الأمر المحرم.

ومن قيود إعمال القاعدة أيضًا: قاعدة "الاضطرار لا يُبطل حق الغير"، فيلزم من اضطر إلى أكل مال غيره أو إتلافه أو نحو ذلك ضمان ما أكله أو أتلفه. وهذه مسألة فيها تفصيل، لذا فإن ابن رجب ذكر تفصيل ذلك، فقال: القاعدة السادسة والعشرون: من أتلف شيئًا لدفع أذاه له لم يضمنه، وإن أتلفه لدفع أذاه به ضمنه.

وخرج على هذه القاعدة بعض الفروع الفقهية، منها: أنه لو صال (اعتدى) على الآدمي حيوان مملوك لغيره، ولم يكن له دفعه إلا بقتله، فقتله فإنه لا يضمنه، لأنه إنما أتلفه لدفع أذاه له، بينما لو قتل حيوانًا مملوكًا لغيره في مجاعة ليحيى بها نفسه، فإنه يضمنه، لأنه أتلفه ليدفع الأذى به. ومن ذلك لو أشرفت سفينة على الغرق، فألقى بعض من كان عليها متاع غيره ليخففها بدون إذنه، فإنه يضمن هذا المتاع، لأنه أتلفه لدفع الأذى به، لكن لو سقط عليه متاع غيره فخشي أن يهلكه فدفعه فوقع في الماء، فإنه في هذه الحالة لا يضمنه، لأنه أتلفه ليدفع الأذى له (انظر القواعد لابن رجب ص٣٦).

تطبيقات عملية في الجمع ما بين الكليات العامة والأدلة الخاصة:

نذكِّر أن الكليات العامة هي التي تحافظ على الضرورات الخمس، الحاجيات، التحسينيات، ونعني بها الكليات النصية التي جاءت في القرآن وصحيح السنة كقوله تعالى: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل»، وقوله تعالى: «أوفوا بالعقود»، وكذلك الكليات الاستقرائية، التي يتوصل إليها عن طريق استقراء عدد من النصوص والأحكام الجزئية كمثل: المشقة تجلب التيسير، والضرورات تبيح المحظورات... أما الدليل الخاص (الدليل الجزئي) فهو الدليل الخاص بمسألة معينة، كآية الربا في تحريم الربا، وآية المداينة في الأمر بها، وهكذا - فلابد للمجتهد، وهو ينظر في هذه الأدلة الخاصة من استحضار كليات الشريعة ومقاصدها العامة وقواعدها الجامعة، وأن يبني الحكم على هذه وتلك معًا، أي: الأدلة الكلية والأدلة الخاصة، وأن الشريعة كلها مبنية على قصد المحافظة على المراتب الثلاث، من الضروريات، والحاجيات، والتحسينيات... وأن هذه الكليات تقضي على كل جزئي تحتها؛ إذ ليس فوق هذه الكليات كلي تنتهي إليه، بل هي أصول الشريعة. فمن أخذ بنص خاص (جزئي) معرضًا عن كلية، فقد أخطأ، وكما أن من أخذ بالكلي معرضًا عن نص خاص فقد أخطأ، فلابد من اعتبارها في كل مسألة. (انظر الموافقات للشاطبي ٣/٥-١٥).

التطبيق الأول: طواف الإفاضة للحائض:

من المعلوم أن طواف الإفاضة ركن من أركان الحج لا يتم الحج بدونه، وجمهور أهل العلم على أنه لا يجزئ بغير طهارة ولا يجبر بالدم وفي حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها وهي تبكي، فقال: أنفستِ؟ - يعني الحيضة - قالت: نعم، قال: إن هذا شيء كتبه الله على بنات آدم، فاقضي ما يقضيه الحاج، غير أن لا تطوفي بالبيت حتى تغتسلي. (متفق عليه)؛ فهذا دليل خاص في المسألة: أن الطهارة من الحيض شرط لصحة الطواف.

الافتراض: أن المرأة حاضت قبل أن تؤدي طواف الإفاضة، وأن رحلتها ستغادر إلى بلادها، ولا تستطيع أن تتخلف عن رحلتها، وقد لا تعود مرة أخرى إلى مكة، فماذا عساها أن تفعل؟

الفتوى: هنا لابد لنا أن نستحضر كليات الشريعة التي رفعت الحرج عن الناس، ولم تكلفهم ما لا يستطيعون. كقوله تعالى: «وما جعل عليكم في الدين من حرج» [الحج: ٧٥]. وقوله جل وعلا: «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» [التغابن: ١٦] إلى غير ذلك من النصوص فهذه أمامها حالتان، وبكل قال فريق من أهل العلم.

الحالة الأولى: تطوف وهي حائض (مع التحفظ من نزول الدم)، وعليها دم بأن تذبح شاة، وتوزعها على فقراء الحرم، وهذا ما قاله أبو حنيفة وأصحابه، وأحمد في إحدى الروايتين عنه، وهي أنصهما عنه.

الحالة الثانية: تطوف وهي حائض، وليس عليها شيء، لأنه لا واجب مع العجز. (وهذا ما رجحه ابن القيم في إعلام الموقعين انظر ٣/١٩- ٣١). وبذلك أيضا أفتى شيخ الإسلام

ابن تيمية، فذكر أقوال العلماء في المسألة: ورجح طوافها وهي حائض ولا شيء عليها (انظر الفتاوى الكبرى ٤٤٣/١- ٤٧٢)، فقال: فهذا الأمر دائر بين أن تطوف مع الحيض، وبين الضرر الذي ينافي الشريعة، فإن إلزامها بالمقام بمكة فيه خوف على نفسها ومالها، وفيه عجز عن الرجوع إلى أهلها، وإلزامها بالمقام بمكة مع عجزها عن ذلك وتضررها به، لا تأتي به في الشريعة (الفتاوى الكبرى ٤٥٠/١).
فنحن هنا لم نعرض الدليل الخاص في المسألة، ويبقى التطهر من الحيض شرطًا من شروط صحة طواف الإفاضة، لا يصح الطواف بدونه لكن مع وجود حالة اضطرار لا يستطاع دفعها، فإننا راعينا الكليات العامة في الفتوى.

التطبيق الثاني: حد الزنا:

قال الله تعالى: « ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ » [النور: ٢]، وهذا هو حد من زنا لغير المحصن (الأعزب الذي لم يتزوج)، وأما من أحصن فقد جاء حده في السنة، ففي الحديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إن الله بعث محمدًا صلى الله عليه وسلم بالحق، وأنزل عليه الكتاب فكان مما أنزل الله آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها، رجم رسول الله ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان، أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، والرجم في كتاب الله حق على من زنى، إذا أُحصن، من الرجال والنساء، إذا قامت البينة، أو كان الحبل أو الاعتراف (متفق عليه).
(آية الرجم هي قوله تعالى: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة، وهذه الآية نُسخت تلاوة، وبقيت حكمًا، وهذا نوع من أنواع النسخ) (انظر دراسات في أصول الفقه للكاتب صـ ١٥٠ - ١٦٩).
وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم برجم ماعز والغامدية وغيرهما فهذه أدلة خاصة: أن الزاني يقام عليه الحد.
الافتراض: إن وقع أحدهم في الزنا وهو جاهل بالحكم، كأن يكون أعجميًا، أو نشأ في بادية بعيدة، أو غير ذلك.
الفتوى: لا بد من استحضار كلية من كليات الشريعة وهي العذر بالجهل، وعدم المحاسبة قبل النذارة. والعذر بالجهل ثابت بالكتاب والسنة وهو مقتضى حكمة الله تعالى، قال الله تعالى: « وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا »[القصص ٥٩].
وقوله تعالى: « رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا » إلى غير ذلك من الآيات.
ومن أدلة السنة حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن رجلا كان قبلكم رغسه (أعطاه) الله مالاً فقال لبنيه لما حضر (حضرته الوفاة): أي أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب. قال: فإني لم أعمل خيرًا قط، فإذا مت فاحرقوني ثم اسحقوني ثم ذروني في ريح عاصف، ففعلوا، فجمعه الله، فقال: ما حملك؟ فقال: مخافتك، فتلقاه برحمته (متفق عليه).
فهذا الرجل شك في قدرة الله تعالى وفي إعادته إذا ذُرّي في الريح، بل اعتقد أنه لا يُعاد، وهذا الفعل كفر باتفاق المسلمين، لكنه كان جاهلاً لا يعلم ذلك، لكنه كان يخشى الله تعالى، فعذره الله بجهله وغفر له بخشيته.
يقول السيوطي: كل من جهل تحريم شيء مما يشترك فيه غالب الناس لم يقبل إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام، أو نشأ ببادية يخفى فيها مثل ذلك: كتحريم الزنا، والقتل والسرقة، والخمر والكلام في الصلاة والأكل في الصوم...(الأشباه والنظائر٢٠٠/١).(كلام شيخ الإسلام أفضل ويكفي)
ويقول شيخ الإسلام:... فإن كان جاهلاً يعذر بجهله مثل أن يكون نشأ بمكان قوم لا يعرفون فيه شرائع الإسلام أو يكون حديث عهد بالإسلام أو نحو ذلك (الفتاوى الكبرى ٢٠٦/٣).
لذا لما زنت امرأة نوبية في عهد عمر رضي الله عنه، وهي أعجمية لم تفقه، وتبين حملها وكانت ثيبًا فجيء بها إلى عمر رضي الله عنه فسألها فقالت: حبلت من مرعوش بدرهمين، فقال علي وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما: قد وقع عليها الحد، وقال عثمان رضي الله عنه: أراها تستهل به كأنها لا تعلمه، وليس الحد إلا على من علمه، فقال: صدقت: ولم يرجمها عمر رضي الله عنه عاذرًا لها بالجهل. [قال الألباني: في إرواء الغليل سنده ضعيف ٣٤٢/٧، لكن له أسانيد أخرى صحيحة أخرجها عبد الرزاق في المصنف ٤٠٣/٧، ٤٠٤].(فالحديث صحيح)
وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

باب الاقتصاد الإسلامي

التَّطبيق المعاصر للـزَّكـاة



إعداد/ د. علي أحمد السالوس

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله نستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيِّئات أعمالنا، مَنْ يَهْدِ الله فهو المُهْتَدِ، ومَنْ يُضْلِلْ فلن تجد له وليًا مرشدًا، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا رسول الله، وعلى آله وصَحْبه ومَنِ اهتدى بهَدْيه واتَّبع سنَّته إلى يوم الدِّين.

أمَّا بعد فيا أيُّها الإخوة المسلمون: تعرفون الحديث المشهور الذي نتداوله: «بُنِيَ الإسلام على خَمْسٍ: شهادة أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمَّدًا رسول الله، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، وصَوْم رمضان، وحَجُّ البيت مَن استطاع إليه سبيلاً»؛ فالرُّكن الثَّالث بعد الشهادَتَيْن والصلاة: الزَّكاة، وبغير هذه العُمُد الخمسة لا يقوم الإسلام، ولا يُقبَل إسلام المرء بغير هذه الخمسة.

والزَّكاة في عهد سيِّدنا رسول الله- صلَّى الله عليه وسلم- كان المسلمون يؤدُّونها، وبعده أدَّوها كذلك- إلاَّ مَن ارتدَّ- وكانوا يعرفون كيف يؤدُّونها، كانوا يعرفون هذا لأنَّ الرَّسول- صلَّى الله عليه وسلَّم- حدَّد مقاديرَ الزَّكاة، وبيَّن أنْصِبَتَها، والأشياء التي يمكن أن يكون فيها خطأٌ أمر بكتابتها؛ كزكاة الماشية. فالأنصبة والمقادير قد يخطئ فيها المصدِّقون العاملون عليها، فأمر- صلَّى الله عليه وسلَّم- بكتابتها.

وفي عصرنا جدَّت أمورٌ كثيرةٌ؛ فقد يريد الإنسان أن يُخرج الزَّكاة- أحيانًا- ولا يدري ماذا يعمل؟

فمثلاً: النُّقود الورقيَّة ما كانتْ موجودة في عهد الرَّسول- صلَّى الله عليه وسلم- والشَّركات المساهمة، والأسهم والسَّندات، وودائع البنوك، والتَّأمين، وأشياءَ كثيرة جدَّت في عصرنا.

التَّاجر الآن يصعب عليه أن يعرف مقدار الزَّكاة إلاَّ إذا سأل؛ لذلك نريد أن نلقي نظرةً سريعةً على هذه الأمور.

وقبل أن نبدأ هذا نذكر بعض القواعد العامَّة في الزَّكاة:

القاعدة الأولى:

هي أنَّ الزَّكاة تجب في المال الذي يملكه الإنسان، فمن الشروط تمام المِلْكيَّة، ويقصد به تمام المِلْك في التَّصرُّف والمنفَعة؛ لأن المِلْك الحقيقي في الإسلام لله- سبحانه وتعالى-: «وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ» [النور: ٣٣]، فالمال ليس مالكم، وإنما مال الله تعالى، أما أنتم فـ: «وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ» [الحديد: ٧]، فأنتم مُستخلَفون في هذا المال، ولذلك فأنتم تتصرَّفون بحسب إرادة المالك الحقيقي، وهو الله سبحانه وتعالى.

المراد إذًا بتمام المِلْك: أنَّ الإنسان يستطيع أن يتصرَّف فيه، لأنَّ الإنسان إذا كان لا يملك المال فكيف يزكِّيه وهو لا يملكه؟ ولذلك وجدنا أنَّ المال الحرام لا زكاة فيه.

كيف لا يزكَّى؟ أيكون عند الإنسان مالٌ حرامٌ ولا يزكِّيه؟

لا، ليس هكذا.. انظروا- مثلاً- إلى أوَّل آية كريمة نزلت في الرِّبا: «وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ» [الروم: ٣٩]. فالرِّبا إذًا يُقابل الزَّكاة، هذا ضدُّ هذا. والمال الذي فيه ربا حرامٌ لا يتطهَّر بالزَّكاة: «خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا» [التوبة: ١٠٣]، فالمال الحرام

لا يزكّى ولا يتطهَّر ولا ينمو بالزَّكاة. مَنْ أخذ المال الحرام؛ لم تتطهَّر نفسه بالزَّكاة، ولذلك فإنَّ المال الحرام كلّه لا يملكه الإنسان.

إذا جاءك مالٌ حرامٌ- والعياذ بالله- فلا تخلطه بمالك ولا تنتفع به مادمت مسلمًا، وإلاَّ كان كل مالك خبيثًا؛ إنَّ الحرام إذا خالط الحلال أفسده، ليصبح الكل خبيثًا.

فإذا جاء حرامٌ؛ فإنّه يُنفق في الصَّالح العام للمسلمين؛ كحالات فقرٍ شديدٍ، أو حربٍ مشروعةٍ، أو غير ذلك.

القاعدة الثَّانية:

هي: أنَّ الزَّكاة تجب في المال النَّامي، والمال النَّامي إمَّا أن يكون ناميًا بطبيعته أو أنَّ الإنسان يُنَمِّيه، المال الذي يعتبر ناميًا بطبيعته هو الذهب والفضة والنقود، فمَن استثمره زكَّاه، ومن لم يستثمره وَجَبَ أن يزكِّيَهُ أيْضًا، فلو أنَّ أحدًا كَنَزَ مالاً قلنا له: المال في الإسلام له وظيفته، وأنت خالفتَ الوظيفةَ، ومع هذا فإنَّ عليكَ أن تؤدِّي الزَّكاة؛ لذلك أمرنَا بأن نتاجرَ في أموال اليتامى حتَّى لا تأكلها الصَّدقة.

والمال الذي ليس ناميًا بطبيعته مثل ماذا؟ مثلاً: بيتٌ أَسْكُنُهُ، سيارةٌ أركبُها، متاعٌ في البيت، آلاتٌ أستخدمُها... كل هذه الأشياء وما شابهها ليست معدَّة للتَّنمية، ما دامت ليست معدَّة للنَّماء فلا زكاة فيها.

تجارةٌ أُتاجرُ فيها، بضائع عندي أُنميها، زرعٌ خرج من أرضٍ؛ هذا نماءٌ للأرض، فالأصل هنا أنَّ الزَّكاة إنَّما تَجِبُ في المال النَّامي.

القاعدة الثَّالثة:

هي أنَّ الزَّكاة تؤخَذ من الأغنياء فتُرَدُّ على الفقراء؛ فمَن الغنيُّ الذي تُؤخَذ منه الزَّكاة؟ ومَن الفقير الذي يَأخذ الزَّكاة؟

الفقير: هو الذي لا يجد تمام كفايته، لا يجد المَسْكَن، لا يجد المَلْبَس، لا يجد المَأكَل، لا يجد المَشْرَب؛ بل إنه إذا أراد أن يتزوَّج لا يجد الزَّوْجة؛ لأنه لا يجد المال الذي يتزوَّج به، ومثل هذا يمكن أن يُساعَد بالزَّكاة.

انظروا إلى حديث الرَّسول- صلَّى الله عليه وسلَّم- الذي رواه أبو داود وسكت عنه هو والمنذري - يعني: أنهما لا يريان فيه ضعفًا- ورواه الإمام أحمد بعدَّة طُرُق: «مَنْ وَلِيَ لنا عملاً وليس له مَسْكَنٌ فليتَّخذْ مسكنًا، وليس له زوجةٌ فليتزوَّج، وليس له دابَّةٌ فليتَّخذْ دابَّةً»، وفي رواية: «وليس له خادمٌ فليَتَّخذْ خَادمًا».

ما معنى هذا؟ معنى هذا أنَّ مَنْ وَلِيَ عملاً في الدَّولة المسلمة؛ فإن الدَّولة المسلمة تَكْفُل له المَسْكَن، إمَّا أن يكون- كما يقول الفقهاء- الأجر الذي يأخذه يكفيه للمسكن، أو أنَّ الدَّولة تؤجر له مسكنًا وأجره يكفيه للزَّواج، أو الدَّولة تساعده على شراء وسيلة الانتقال، وإذا كان عمله هذا عملاً لصالح المسلمين يشغله عن خدمته الخاصَّة فاحتاج إلى خادم فليتَّخذْ خادمًا؛ أي إنَّ العمل إذا كان يشغله عنْ خدمة نفسه؛ فعلى الدَّولة أن تأتيه بخادم يقوم بخدمته.

نأخذ من هذا: أنَّ الإسلام يضمن للمسلم تمام الكفاية.

ولذلك فإنَّ مفهوم الزَّكاة ليس كما يظنُّ كثيرٌ منَ النَّاس: أن نعطيَ لُقَيْمَات، أن نُعْطِيَ بعض الدَّراهم، مفهوم الزَّكاة في الإسلام هو:

أن نحارب الفقر.. أن نعطيَ ما يُغني.. أن نقلِّل من عددِ الفقراء.. أن نحوِّل هذا الفقير الذي يستحقُّ الزَّكاة إلى غنيٍّ يعطي الزَّكاة فيما بعد.

وبذلك يتحوَّل المجتمع المسلم من مجتمع فيه كثيرٌ من الفقراء إلى مجتمع فيه كثيرٌ من الأغنياء! ولهذا وجدنا المصدِّقينَ في عهد سيدنا عمر بن عبدالعزيز- رضيَ الله عنه- أخذوا يبحثون عمَّن يستحقُّ الزَّكاة فما وجدوا، فأخذ منادي أمير المؤمنين ينادي:

هل من ناكح فنزوِّجَه؟ هل من مَدين فنسدَّ عنه دَيْنَه؟... وهكذا.

وبهذا المنهج الإسلاميِّ الربَّانيِّ تحوَّل المجتمع إلى مجتمع كله من الأغنياء؛ حتى إنهم أخذوا يبحثون عنْ فقير فما وجدوا.

ولذلك فإننا عندمَا نجد الفقراء، وعندما نسمع أن الآلاف- بل آلاف الآلاف- من المسلمين يموتون جوعًا في عصرنا، إنما يكون هذا لأنَّ الأغنياء قد أكلوا أموالهم، وسيحاسبون يوم القيامة؛ فيعذِّبهم الله بها في نار جهنَّم.

وعندما يحدِّد ربُّنا- عزَّ وجلَّ- زكاةً مقدارها كذا؛

فإنَّ هذا يعني أنَّ المِلْكيَّة تنتقل إلى المصارف الثمانية التي حدَّدها ربُّنا- عزَّ وجل-: «إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ» [التوبة: ٦٠]، فالمِلْكيَّة تنتقل ممَّن عنده هذا المال إلى مَنْ يستحقُّ الزَّكاة، ولكن شَحَّت نَفْسُ ذاك الرجل المسكين ومات ولم يُخرج زكاةً، وهو الآن يعذَّب بها في قبره، وسيعذَّب بها في جهنَّم، ولا ندري مَنْ جاء بعده: أين أنفق هذه الأموال الطائلة؟ ربما ينفقها في حرام فيزداد إثْمُهُ.

إنَّنا هنا نرجو أن ندرك مفهوم الزَّكاة في الإسلام: إذا أعطيتم فأغنوا، إذا وجدتَ إنسانًا يمكن أن يتحوَّل إلى فقير محتاج يسأل الناس؛ فأَعْطِه ما يصبح به غنيًّا.

ولكنْ مع هذا نجد فرقًا بين مَنْ يستحقُّ الزَّكاة وبين مَنْ يطلب الزَّكاة، فهذا الذي نعطيه ما يكفيه حَوْلَه أو ما يكفيه دهره ليس معناه أنَّ من حقِّه أن يسأل الناس.. لا، ليس معناه هذا، وإلاَّ كنَّا نذهب إلى أنَّ الإسلام يساعد على التسوُّل. لا، ليس معناه أنَّ واحدًا عنده- مثلاً- ما يكفيه عشرة أشهر فيقول: لله؛ لأني ليس عندي إلا ما يكفي عشرة أشهر فقط، أريدُ شهرَيْن، أو على الرَّأي الآخَر: أريدُ باقيَ الدَّهر. مَنْ كان عنده غداؤه وعشاؤه فلا يسأل النَّاس، ومَنْ مَلَكَ ما يكفيه في اليوم لا يسأل النَّاس.

القاعدة الرَّابعة

وهي- أيها الإخوة- مهمَّة للغاية: وهي أنَّ الضريبة لا تُغني عن الزَّكاة؛ فالضرائب- من حيث الأسباب ومن حيث المصارف- تختلف عن الزَّكاة؛ لأنَّ الزَّكاة حُدِّدَت في أموال معيَّنة، والمصارف الثمانية حدَّدها ربُّنا- عزَّ وجلَّ- في كتابه، فالصَّدقات لا تخرج عن هذه المصارف الثَّمانية، أمَّا الضرائب؛ فإنَّ الدَّولة قد تفرضها لإنشاء مستشفى يعالَج فيها الغني والفقير؛ فهل تكون هذه زكاةً؟! أتكون زكاةً والغنيُّ يعالَج فيها؟ وإذا كانت الدَّولة تريد ضرائبَ لإنشاء طريق؛ فليس هذا من المصارف الثَّمانية.

أحيانًا الزَّكاة لا تكفي حاجات الدَّولة- كما يحدث في أعوام الشدَّة- فهنا من حقِّ الدَّولة أن تفرض ضرائب فوق هذا. إذن؛ الضرائب شيءٌ والزَّكاة شيءٌ آخَر، فبينهما فروق كثيرة.

ومن الأسئلة التي كثيرًا ما توجَّه إلينا: أنا موظَّفٌ في منظمة كذا، وتأخذ مني (٥٪) من الرَّاتب. هل أعتبرُ هذا من الزَّكاة؟

نقول له: لا يا أخي، هذه ضريبةٌ، هذه ليست زكاة، والزَّكاة عبادةٌ، ولذلك يُشترَط فيها النيَّة: فأنت إذا دفعت أموالاً ثم تقول - مثلاً-: أحسب هذا من الزَّكاة فأنت مخطئ؛ لأنَّك لم تَنْوِ الزَّكاة، فلا تَحْسَبِ هذه الضَّريبة من الزَّكاة.

القاعدة الخامسة:

أنَّه لا ثِنَى في الصَّدَقَة؛ بمعنى أنَّ المال لا يزكَّى في الحَوْل الواحد أكثر من مرَّة، ولا يزكَّى مرتَيْن بسببَيْن مختلفَيْن؛ فتاجر الماشية- مثلاً- لا يزكِّي زكاة ماشية وزكاة تجارة في الماشية ذاتها، ولكن ما دامتْ للتجارة أصبحت كسائر عروض التِّجارة؛ فإنه يُخرج زكاةَ تجارة، أي (٢,٥٪) من قيمتها، ولا يُخرِج عنها زكاة الماشية. فيمكن إذن الجَمْع بين الزَّكاة والضَّريبة، ولكن لا يُجْمَع بين زكاتَيْن في مال واحد.

القاعدة السَّادسة:

أنَّ الزَّكاة متَى وجبتْ فلا تسقُط بالتَّقادم، فمَنْ وَجَبَت الزَّكاة في ماله ولم يخرجْها لأكثر من حَوْل؛ فإنَّ ذمَّته لا تبرأ إلا بإخراج كل ما وَجَبَ منها.

ونختم الحديث عن القواعد العامة بمسألة تتعلَّق بالدَّولة والفرد، فمن المعلوم أنَّ الدَّولةَ المسلمة من وظائفها جمع الزَّكاة، وإنفاقها في مصارفها، ولكن إذا لم تَقُم الدَّولة بهذا الواجب فلا تسقط الزَّكاة عن المكلَّف.

وفي عصرنا نَرَى أن معظم الدول لا تجمع الزَّكاة، وفرقٌ جوهريٌّ بين الدَّولة في الإسلام والدَّولة العصريَّة؛ الدَّولة العصريَّة عندما تَنْشأ تُنْشئ القانون، ولذلك فإنَّ الإنسان إذا لم يكن في دولة عصريَّة فإنه لا ينفذ القانون، أمَّا الدَّولة المسلمة إنَّما تنشأ بعد أن جاء القانون، فما قانون الدَّولة المسلمة؟ إنَّه حُكْمُ الله في الكتاب والسنَّة، وحكم الله موجودٌ قبل أن توجد الدَّولة.

وفرق آخر بين الدَّولة المسلمة والدَّولة العصريَّة: وهو أنَّ الإنسان في الدَّولة العصريَّة ينفِّذ القانون ما دام في الدَّولة، والرَّقيب عليه هو الدَّولة، وأجهزة الدَّولة، الفرد في الدَّولة المسلمة ينفِّذ القانون سواء وُجِدَت الدَّولة أم لم توجد، انفَّذت الدَّولة القانون الإسلامي أم لم تُنَفِّذْ، أراقَبَت الدَّولة أم لم تُراقِب؛ لأنَّ الرَّقابة هنا في الدَّولة مزدوجة: رقابة الدَّولة من ناحية، ومراقبة الله- عزَّ وجلَّ- وهي الأهم من رقابة الدَّولة، وبذلك نستطيع أن نفسِّر: لماذا لم يكن فساد عصرنا موجودًا في الدَّولة الإسلاميَّة سابقًا؟

زكاة النُّقود الورقيَّة:

هذه قواعد عامَّة نرجو أن نفهمها بالنِّسبة للزَّكاة، ونبدأ في الزَّكاة بزكاة النُّقود الورقيَّة:
النقود الورقيَّة لم تكن موجودة في عصر الرَّسول- صلَّى الله عليه وسلَّم- ففي عصر التَّشريع كانت النقود الموجودة من الذَّهب- وهي الدَّنانير- أو من الفضَّة- وهي الدَّراهم- والرَّسول- صلَّى الله عليه وسلَّم- حدَّد النِّصاب والمقدار؛ فالنِّصاب: مائتا درهم من الفضَّة، ونصاب الذَّهب عشرون دينارٌ ذهبيًا.
النقود بعد هذه تطورت إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه الآن، فكيف نحسب النِّصاب في عصرنا؟ وما مقدار الزَّكاة الآن؟
مقدار الزَّكاة حُدِّدَ أيام الرَّسول- صلَّى الله عليه وسلَّم- وهو (٢,٥٪)؛ أي: ربع العُشْر، ولكن كيف نحسب النِّصاب؟ كيف تعرف أنَّ الرِّيالات أو الجنيهات التي معنا الآن وصلت إلى النِّصاب؟
بالبحث وُجِدَ أنَّ عشرين دينارًا ذهبيًا تَزِنُ خمسة وثمانين جرامًا من الذَّهب، وأنَّ مائتَي درهم من الفضَّة تَزِنُ خمسةً وتسعين جرامًا من الفضَّة، فعُرِضَ علَى مجمع البحوث موضوع النِّصاب: كيف نحدده بالنسبة للعملة الورقيَّة الآن؟ فقال: نحدِّد النِّصاب بالذَّهب؛ لأنه أكثر ثباتًا، فما بلغتْ قيمته عشرين مثقالاً ذهبيًا وَجَبَتْ فيه الزَّكاة.
فلو أنَّ معي ريالات أو جنيهات ؛ كيف أحسب الزَّكاة وأعرف النِّصاب؟ أنظرُ إلى سعر الذَّهب: كم ثمن الجرام؟ ثم أنظرُ إلى ما معي: هل أستطيع بهذا المبلغ الذي معي أن أشتري (٨٥) جرامًا من الذَّهب؟
إذا وصل إلى هذا المقدر؛ فقد أصبحتَ من الأغنياء، ووَجَبَت الزَّكاة على هذه النقود.
بعد ذلك نترك الذهب وننظر إلى ما معي؟ كم ريالاً معي؟ الألف نُخرج منه خمسة وعشرين، خمسة آلاف نخرج منها مئة وخمسة وعشرين.. وهكذا، فأنا أحْسبُ ما معي من الجنيهات - أو أيِّ عملة من العملات- وأخرج عنها (٢,٥٪)؛ هذه زكاة النُّقود.

زكاة الذهب:

أما الذهب الآن: فنصابه هو النِّصاب السابق بلا خلاف، ولكنَّ الذَّهب الآن نراه في أيِّ شيء؟ كنَّا نجده في النُّقود، والآن لا توجد نقود ذهبيَّة، نراه الآن في حُليِّ النِّساء كما كان، وحديثًا أيضًا نراه في حُليِّ أُناس ينتسبون إلى الرِّجال، إشكالهم أشكال رجال، ولكنهم يتشبَّهون بالنِّساء؛ فلعنهم الرسول- صلَّى الله عليه وسلَّم- ونراه أيضًا في عصرنا في أوانٍ وملاعقَ وشوكٍ وتحف، وغير ذلك من سَرَفِ العصر وسَفَهِه.

حليُّ النِّساء:

فأمَّا حليُّ النِّساء: فهي حلالٌ لهنَّ، واختلف الفقهاء هنا في وجوب الزَّكاة عليها، بعضهم قالوا: تَجِبُ زكاتها، لبُسُها حلالٌ ولكنَّها فيها زكاة، ولَكنَّ أكثر الفقهاء يرون أنه ما دامت المرأة تلبسها، ولا يزيد ما تلبس عن حدِّ المعقول؛ فلا زكاة فيها، فإذا زادت عن المعقول؛ وَجَبَت فيها الزَّكاة. فالحليُّ التي لا تُلْبَس، أو التي تزيد عن حدِّ المعقول والمعروف، أو التي تشترى بقَصْد الادِّخار تجب فيها الزَّكاة.
والرِّجال الذين خرجوا عن رجولتهم في عصرنا ولبسوا هذه الحُليَّ عليهم زكاتها، وهم آثمونَ ملعونون؛ لأنهم متشبِّهون بالنِّساء، ولأنهم استخدموا الذَّهب في غير ما يُستخدم له.

والحمد لله رب العالمين.



الأمثال في القرآن الكريم

حال المنفق ابتغاء مرضات الله

دراسات قرآنية

الحلقة الثامنة

إعداد/ مصطفى البصراتي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

ففي هذا المقال نتحدث عن مثل آخر من أمثال القرآن، وهو من سورة البقرة الآية الخامسة والستون بعد المائتين وهي قوله تعالى: «وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» [البقرة: ٢٦٥].

المعنى الإجمالي

قال ابن عطية في «المحرر الوجيز»: من أساليب فصاحة القرآن أنه يأتي فيه ذكر نقيض ما تقدم ذكره، لتستبين حال التضاد بعرضها على الذهن، فلما ذكر الله صدقات القوم الذين لا خلاق لصدقاتهم، ونهى المؤمنين عن مواقعة ما يشبه ذلك بوجه ما، عقب في هذه الآية بذكر نفقات القوم الذين تركوا صدقاتهم وهي على وجهها في الشرع فضرب لها مثلاً.

وتقدير الكلام: ومثل نفقة الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل غراس جنة؛ لأن المراد بذكر الجنة غراسها، أو يقدر الإضمار في آخر الكلام، دون إضمار نفقة في أوله، كأنه قال: كمثل غارس جنة.

وقال الطاهر بن عاشور في «التحرير والتنوير» (٣/ ٥٠): «عطف» «وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ» [البقرة: ٢٦٥] على «كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ» [البقرة: ٢٦٤]؛ لزيادة بيان ما بين المرتبتين من البَوْن، وتأكيدًا للثناء على المنفقين بإخلاص، وتفننًا في التمثيل فإنه قد مثله فيما سلف بجنة أنبتت سبع سنابل، ومثّله فيما سلف تمثيلاً غيرَ كثير التركيب لتحصل السرعة بتخيّل مضاعفة الثواب، فلما مَثّل حال المنفق رئاءً بالتمثيل الذي مضى أُعيد تمثيل حال المنفق ابتغاء مرضات الله بما هو أعجب في حسن التخيل، فإن الأمثال تبهج السامع كلما كانت تركيبًا وضمنت الهيأة المشبه بها أحوالاً حسنة تُكسبها حُسنًا ليرى ذلك التحسين إلى المشبه، وهذا من جملة مقاصد التشبيه.

والتثبيت المذكور في الآية «وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ» [البقرة: ٢٦٥] هو تحقيق الشيء وترسيخه، وهو تمثيل يجوز أن يكون لكبح النفس عن التشكيك والتردد، أي: أنهم يمنعون أنفسهم من التردد في الإنفاق في وجوه البر، ولا يتركون مجالاً لخواطر الشحّ، وهذا من قولهم ثبت قدمه أي: لم يتردد ولم ينكص، فإن ترويض النفس على فعل ما يشق عليها لها أثر في رسوخ الأعمال حتى تعتاد الفضائل وتصير لها ديدنًا.

وإنفاق المال من أعظم ما ترسخ به الطاعة في النفس؛ لأن المال ليس أمرًا هينًا على النفس، وتكون «من» على هذا الوجه للتبعيض لكنه تبعيض مجازي باعتبار الأحوال، أي تثبيتًا لبعض أحوال النفس، ويجوز أن يكون تثبيتًا تمثيلاً للتصديق أي تصديقًا لوعد الله وإخلاصًا في الدين ليخالف حال المنافقين، فإن امتثال الأحكام الشاقة لا يكون إلا عن تصديق للآمر بها، أي: يدلون على تثبيت من أنفسهم.

فالإيمان يأمر بالصدقة وأفعال البر، والذي يأتي تلك المأمورات يثبت نفسه بأخلاق الإيمان، وعلى هذا الوجه تصير الآية تحريضًا على تكرير الإنفاق.

ومُثل هذا الإنفاق بجنة بربوة.. إلخ، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من مجموع أشياء تكامل بها تضعيف المنفعة، فالهيئة المشبّهة هي النفقة التي حفّ بها طلب رضا الله والتصديق بوعده هي هيئة

الجنة الطيبة المكان التي جاءها المطر فزكا ثمرها، وتزايد فأكملت الثمرة، أو أصابها طل فكانت دون ذلك. [التحرير والتنوير، بتصرف].
فمثَّل حال القسمين وأعمالهم بالجنة على الربوة، ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل، وكما أن كل واحد من المطرين يوجب زكاء أكل الجنة ونموه بالأضعاف، فكذلك نفقتهم- كثيرة أو قليلة- بعد أن صدرت عن ابتغاء مرضات الله والتثبيت من نفوسهم فهي زاكية عند الله نامية مضاعفة. [الجامع لأمثال القرآن لابن القيم ص٧٧].

المعنى المفصل

«مثل»: مبتدأ، وخبره قوله تعالى: «كَمَثَلِ جَنَّةٍ» [البقرة: ٢٦٥].
«ينفقون»: أي يبذلون.
«ابتغاء مرضات الله»: طلب رضا الله.
«وتثبيتًا»: معطوفة على «ابتغاء»، وقوله تعالى: «من أنفسهم»: «من ابتدائية»، يعني: تثبيتًا كائنًا في أنفسهم لم يحملهم عليه أحد.
ومعنى يثبتونها: يجعلونها تثبت، وتطمئن، أي: لا تتردد في الإنفاق، ولا تشك في الثواب، وهذا يدل على أنهم ينفقون طيبة نفوسهم بالنفقة.
وقال ابن عطية: و«تثبيتًا» معناه: وتيقنًا، أي: أن نفوسهم لها بصائر متأكدة، فهي تثبتهم على الإنفاق في طاعة الله تثبيتًا.
وقيل: على يقين بإخلاف الله عليهم، وقال قتادة: «وتثبيتًا»: وإحسانًا من أنفسهم.
قوله تعالى: «كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ» [البقرة: ٢٦٥]
«الجنة»: البستان الكثير الأشجار، وسميت بذلك؛ لأنها تجن من فيها، أي: تستره.
وقال الطاهر ابن عاشور في التحرير (٥٢/٣): والجنة مكان من الأرض ذو شجر كثير بحيث يجن أي: يستر الكائن فيه، فاسمها مشتق من جنَّ إذا ستر، وأكثر ما تطلق الجنة في كلامهم على ذات الشجر المثمر المختلف الأصناف، فأما ما كان مفروشا نخيلاً بحتًا فإنما يسمى حائطًا.
والمشتهر في بلاد العرب من الشجر المثمر غير النخيل هو الكرم، وثمره العنب أشهر الثمار في بلادهم بعد التمر، فقد كان الغالب على بلاد اليمن والطائف ومن ثمارهم الرمان، فإن كان النخل معها قيل لها جنة أيضًا كما في الآية التي بعد هذه، ومما يدل على أن الجنة لا يُراد بها حائط النخل، قوله تعالى: في سورة الأنعام: «وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ» [الأنعام: ١٤١]، فعطف النخل على الجنات وذكر العريش وهو مما يُجعَل للكرم، هذا ما يُستخلص من كلام علماء اللغة. اهـ. (التحرير والتنوير ٥٢/٣).
قوله تعالى: «بربوة»: بفتح الراء وقرئت أيضًا بالضم، وهي المكان المرتفع، من ربا الشيء إذا زاد وارتفع، كما في قوله تعالى: «فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ» [الحج: ٥]، ومنه الرابية؛ لأن أجزاءها ارتفعت ومنه الربو إذا أصابه نفس في جوفه زائدًا، ومنه الربا، لأنه الزيادة.
قال المفسرون: إن البستان إذا كان في ربوة من الأرض كان أحسن وأكثر ريعًا. [اللباب في علوم الكتاب ٣٩٩/٤].
قال ابن القيم في الجامع لأمثال القرآن: والجنة بربوة- وهو المكان المرتفع- لأنها أكمل من الجنة المستفلة التي بالوهاد والحضيض، لأنها إذا ارتفعت كانت بمدرجة الأهوية والرياح، وكانت ضاحية للشمس وقت طلوعها واستوائها وغروبها، فكانت أنضج ثمرًا وأطيبه وأحسنه وأكثره؛ فإن الثمار تزداد طيبًا وزكاءً بالرياح والشمس، بخلاف الثمار التي تنشأ في الظلال. وإذا كانت الجنة بمكان مرتفع لم يخش عليها إلا من قلة الشرب.
قوله تعالى: «أصابها وابل» أي نزل عليها وابل، والوابل: المطر الشديد، جنة كهذه بربوة مرتفعة للهواء بائنة ظاهرة للشمس، أصابها وابل، فإن هذه الجنة ستثمر ثمرًا عظيمًا، ولهذا قال الله تعالى: «فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ» [البقرة: ٢٦٥] «الأكل» بمعنى الثمر الذي يؤكل: قال الله تعالى: «أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا» [الرعد: ٣٥] يعني ثمرها الذي يؤكل، و«ضعفين» أي: مضاعفًا وزائدًا.
قوله تعالى: «فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ» [البقرة: ٢٦٥]: الجملة شرطية، الشرط: «إن» وفعل الشرط: «لم يصبها»، و«طل» أي فهو طل، والجملة جواب الشرط، والمعنى: فإن لم يصبها المطر الشديد أصابها طل، وهو المطر الخفيف، ويكفيها عن المطر الكثير؛ لأنها في أرض خصبة مرتفعة بينة للشمس، والهواء، والمثل منطبق: فقد شبَّه هذا الذي ينفق ماله ابتغاء مرضات الله وتثبيتًا من نفسه بهذه الجنة. [تفسير القرآن لابن عثيمين: ٣٢٦/٣- ٣٢٧].
وقال ابن القيم في الجامع لأمثال القرآن: الوابل: وهو دون الطل فهو يكفيها لكرم منبتها وطيب مغرسها، فتكتفي في إخراج بركتها بالطل.

وهذا حال الأبرار المقتصدين في النفقة وهم درجات عند الله.

فأصحاب الوابل أعلاهم درجة، وهم الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًا وعلانية، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وأصحاب الطل مقتصدوهم. اهـ.

قوله تعالى: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» [البقرة: ٢٦٥]: قدم الجار والمجرور- وهو متعلق بـ «بصير» لإفادة الحصر، ومراعاة الفواصل، والحصر هنا إضافي للتهديد؛ لأن الله بصير بما نعمل، وبغيره، فيشمل ما نعمله من الأقوال، ويشمل ما في قلوبنا، قال الله تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ» [ق: ١٦]. اهـ.

من فوائد الآية من تفسير ابن عثيمين ٣/٣٢٧

١- من فوائد الآية: أنه لا إنفاق نافع إلا ما كان مملوكًا للإنسان؛ لقوله تعالى: «أموالهم»؛ فلو أنفق مال غيره لم يُقبل منه إلا أن يكون بإذن من الشارع، أو المالك.

فإن قال قائل: عندي مال محرم لكسبه، وأريد أن أتصدق به فهل ينفعني ذلك؟

فالجواب: إن أنفقه للتقرب إلى الله به: لم ينفعه، ولم يسلم من وزر الكسب الخبيث؛ والدليل قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا» [صحيح مسلم ١٠١٥]. وإن أراد بالصدقة به التخلص منه، والبراءة من إثمه: نفعه بالسلامة من إثمه، وصار له أجر التوبة منه، لا أجر الصدقة.

ولو قال قائل: عندي مال اكتسبته من ربا فهل يصح أن أبني به مسجدًا، وتصح الصلاة فيه؟

فالجواب: بالنسبة لصحة الصلاة في هذا المسجد هي صحيحة بكل حال؛ وبالنسبة لثواب بناء المسجد: إن قصد التقرب إلى الله بذلك لم يُقبل منه، ولم يسلم من إثمه؛ وإن قصد التخلص سلم من الإثم، وأثيب- لا ثواب باني المسجد- ولكن ثواب التائب.

٢- ومن فوائد الآية: بيان ما للنية من تأثير واشتراطها في قبول الأعمال؛ لقوله تعالى: «ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ» [البقرة: ٢٠٧].

٣- ومنها: أن الإنفاق لا يفيد إلا إذا كان على وفق الشريعة؛ لقوله تعالى: «ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ»؛ وجه ذلك أن من ابتغى شيئًا فإنه لا بد أن يسلك الطريق الموصل إليه؛ ولا طريق يوصل إلى مرضات الله إلا ما كان على وفق شريعته في الكمّ، والنوع، والصفة؛ كما قال تعالى في الكمّ: «وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا» [الفرقان: ٦٧]، وقال تعالى في النوع: «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ» [الحج: ٣٤]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يقبل الله إلا الطيب» [صحيح مسلم]. وفي الصفة قال الله تعالى: «كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» [البقرة: ٢٦٤].

٤- ومن فوائد الآية: إثبات رضا الله؛ لقوله تعالى: «مرضات الله»، وهو من الصفات الفعلية.

٥- ومنها: بيان أن تثبيت الإنسان لعمله، واطمئنانه به من أسباب قبوله؛ لقوله تعالى: «وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ» [البقرة: ٢٦٥]؛ لأن الإنسان الذي لا يعمل إلا كارهًا فيه خصلة من خصال المنافقين؛ كما قال تعالى: «وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ» [سورة التوبة: ٥٤].

٦- ومنها: فضل الإنفاق على وجه التثبيت من النفس؛ لأنه يندفع بدافع نفسي؛ لا بتوصية من غيره، أو نصيحة.

٧- ومنها: إثبات القياس؛ لقوله تعالى: «مثل.. كمثل..»، وقد ذكرنا قاعدة فيما سبق أن كل مثال في القرآن سواء كان تمثيليًا، أو إفراديًا، فهو دليل على ثبوت القياس.

٨- ومنها: أنه يحسن في التعليم أن يبين المعقول بالمحسوس؛ لقوله تعالى: «كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ» [البقرة: ٢٦٥]؛ وهذا من البلاغة؛ لأنه يقرب المعقول إلى أذهان الناس.

٩- ومنها: اختيار المكان الأنفع لمن أراد أن ينشئ بستانًا؛ لقوله تعالى: «كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ» [البقرة: ٢٦٥].

١٠- ومنها: بركة آثار المطر؛ لقوله تعالى: «فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ» [البقرة: ٢٦٥]؛ ولهذا وصف الله المطر بأنه مبارك في قوله تعالى: «وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ» [ق: ٩] الآيتين.

١١- ومنها: أنه إذا كان مكان البستان طيبًا فإنه يكفي فيه الماء القليل؛ لقوله تعالى: «فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ» [البقرة: ٢٦٥].

١٢- ومنها: إثبات علم الله، وعمومه؛ لقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» [البقرة: ١١٠].

١٣- ومنها: التحذير من مخالفة الله عز وجل؛ لكونه عالمًا بما نعمل. [تفسير ابن عثيمين ٣/٣٢٧].

والله الموفق وهو من وراء القصد.



دروس وعبر من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه

إعداد/ جمال عبد الرحمن

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد،

فقد حاول الرسول عليه الصلاة والسلام- جاهدا- أن يقنع أهل مكة بأن قبولهم للحق لن يحرمهم ذرة من الخير الذي مُتعوا به، فأبى الظالمون إلا كفورا: « وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » [٥٧ القصص].

ومن هنا اشتبك سادة مكة في حرب مع الإسلام، اعتبروها دفعًا عن كيانهم المادي، ووضعهم الاقتصادي، إلى جانب ما هنالك من عوامل أخرى، وهذه الحروب معروفة النتائج: « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ». (٥٨) [القصص]. [فقه السيرة للغزالي ص: ١٥٣].

ومن هنا كان الأذى لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين آمنوا معه، فلم يجد المسلمون إلا أن يفروا بدينهم، خاصة وقد أذن الله تعالى لهم وأخبر نبيَّهم بدار الهجرة التي يمكنهم الانتقال إليها ليأمنوا على أنفسهم في ذلك المجتمع الوليد، في الوطن الجديد.

«ولقد كان نجاح الإسلام في تأسيس وطن له وسط صحراء تموج بالكفر والجهالة، هو أخطر كسب حصل عليه منذ بدأت الدعوة له، وقد تنادى المسلمون من كل مكان: هلمّوا إلى المدينة.. فلم تكن الهجرة تخلّصا فقط من الفتنة والاستهزاء، بل كانت تعاونا عاما على إقامة مجتمع جديد في بلد آمن.

وأصبح فرضا على كلِ مسلم قادر أن يسهم في بناء هذا الوطن الجديد، وأنّ يبذل جهده في تحصينه، ورفع شأنه، وأصبح ترك المدينة- بعد الهجرة إليها- نكوصا عن تكاليف الحق، وعن نصر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فالحياة بها دين، لأنَ قيام الدين يعتمد على إعزازها.

إنّ المسلمين- بإذن من الله ورسول الله صلى الله عليه وسلم - هرعوا من مكة وغيرها إلى المدينة يحدوهم اليقين، وترفع رؤوسهم الثقة. فلم تكن الهجرة انتقال موظف من بلد قريب إلى بلد ناء، ولا ارتحال طالب قوت من أرض مجدبة إلى أرض مخصبة..

إنها إكراه رجل آمن في سربه، ممتدّ الجذور في مكانه، على إهدار مصالحه، وتصفية أمواله، والنجاة بشخصه فحسب، وإشعاره- وهو يصفّي مركزه- بأنه مستباح منهوب، قد يهلك في أوائل الطريق أو نهايتها، وبأنه يسير نحو مستقبل مبهم، ولا يدري ما يتمخّض عنه من قلاقل وأحزان، ولو كان الأمر مغامرة فرد بنفسه لقيل: مغامر طيّاش، فكيف وهو ينطلق في طول البلاد وعرضها، يحمل أهله وولده؟! وكيف وهو بذلك رضيّ الضمير، وضّاء الوجه؟!.

إنّه الإيمان، الذي يزن الجبال ولا يطيش! وإيمان بمن؟! بالله الذي له ما في السموات وما في الأرض، وله الحمد في الأولى والآخرة، وهو الحكيم الخبير.

هذه الصّعاب لا يطيقها إلا مؤمن، أما الهيّاب الخوّار القلق، فما يستطيع شيئًا من ذلك، لأنّه من أولئك الذين قال الله فيهم:« وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ » [النساء:٦٦].

أما الرجال الذين التقوا بمحمد صلى الله عليه وسلم في مكة، وقبسوا منه أنوار الهدى، وتواصوا بالحقّ والصبر، فإنهم نفروا خفافًا ساعةَ قيل لهم: هاجروا إلى حيث تُعزّون». (المصدر السابق ص١٦٦).

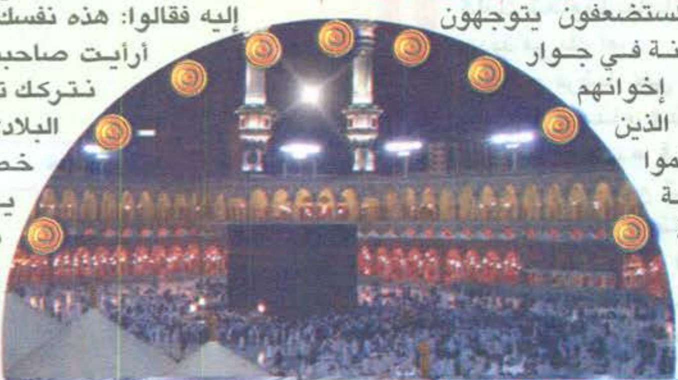
الإيمان والعمل الصالح والصبر أساس التمكين:

ثم بدأ المستضعفون يتوجهون إلى المدينة في جوار واستضافة إخوانهم الأنصار الذين كانوا أسلموا في مكة في بيعة العقبة.

عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف وعن عروة عن عائشة قالا: لما صَدَرَ (رجع) السبعون (الذين بايعوا عند العقبة بمكة) من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، طابت نفسه، وقد جعل الله له منعة وقومًا أهل حرب وعُدة ونجدة، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلمون من الخزرج، فضيقوا على أصحابه وتعبثوا بهم ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى، فشكا ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم واستأذنوه في الهجرة، فقال:» قد أريت دار هجرتكم أريت سبخة ذات نخل بين لابتين هما الحرتان...». ثم مكث أيامًا ثم خرج إلى أصحابه مسرورًا فقال:» قد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب فمن أراد الخروج فليخرج إليها». فجعل القوم يتجهزون ويترافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك، فكان أول من قدم المدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو سلمة بن عبد الأسد، ثم قدم بعده عامر بن ربيعة معه امرأته ليلى بنت أبي حثمة، فهي أول ظعينة (مسافرة) قدمت المدينة، ثم قدم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسالاً (أفواجًا) فنزلوا على الأنصار في دورهم فآووهم ونصروهم وآسوهم. تاريخ دمشق ٢٥/٣٢٣.

الصبر الجميل على البلاء الثقيل في هجرة أبي سلمة:

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة رَحّل لي بعيرهُ ثم حملني عليه، وجعل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج يقود بي بعيره، فلما رأته رجال بني المغيرة قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك غلبْتَنا عليها، أرأيت صاحبتنا هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خطام البعير من يده وأخذوني منه، قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد؛ رهط



أبي سلمة (أهله)، وقالوا: والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا، قالت: فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة، قالت: ففرّق بيني وبين ابني وبين زوجي.

قالت: فكنت أخرج كل غداة فأجلس في الأبطح فما أزال أبكي حتى أمسي - سنة أو قريبا منها - حتى مر بي رجل من بني عمي أحد بني المغيرة فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تُخرجون هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها؟ قالت: فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئت، قالت: فرد بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني، قالت: فارتحلتُ بعيري، ثم أخذتُ ابني فوضعْتُه في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، قالت: وما معي أحد من خلق الله.

النخوة والشهامة عند العرب:

قالت: حتى إذا كنتُ بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، أخا بني عبد الدار، فقال: إلى أين يا ابنة أبي أمية؟ قلت: أريد زوجي بالمدينة، قال: أو ما معك أحد؟ قلت: ما معي أحد إلا الله وبُنَي هذا، فقال: والله مالَك من مَتْرَك (لا أتركك وحدك)، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبْتُ رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل (استراحة بالطريق) أناخ بي، ثم استأخر عني حتى إذا نزلت استأخر ببعيري فحط عنه ثم قيَّده في الشجرة ثم تنحى [عني] إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرَحَّله ثم استأخر عني وقال: اركبي، فإذا ركبتُ فاستويتُ على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقادني حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية - وكان أبو سلمة بها نازلاً - فادخليها على بركة الله.

ثم انصرف راجعًا إلى مكة، فكانت تقول: ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحبًا قط كان أكرم من عثمان بن طلحة.

وفي الخبر السابق تظهر قسوة المشركين وغلظتهم على أهل الإسلام، لأن المشركين أمِنوا حساب الدنيا ففعلوا مثل هذا الإجرام مع مثل هذه المرأة الضعيفة وولدها الصغير. أما الآخرة فهم عنها غافلون، وبها لا يؤمنون.

ولم يكن أمام أم سلمة رضي الله عنها إلا الصبر واللجوء إلى الله العلي الأعلى، الذي آنس وحشتها وأزال غربتها وجمع أسرتها، فليَّن قلب أحد أقاربها الذي طالب بإنصافها، ثم قيض سبحانه لها رجلاً شهمًا أمينًا عفيفًا أبى أن يتركها تسافر وحدها، فصحبها طول الطريق، وقام على أمرها خير قيام. وكل هذا من عناية الله تعالى لأوليائه؛ فسخر لهم الرجال وألان لهم القلوب:

«وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً(٢)وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ »(٣). الطلاق.

اعتبروا يا أهل الإسلام

إذا كان عثمان بن طلحة قام بكل ذلك ولم يك مسلمًا آنئذ؛ فماذا يقول ويفعل أهل الإسلام ممن فرطوا فيه وهم يخالطون النساء بأبشع الصور ويقعون معهم فيما يستجلب غضب الله ومقته؟.

مكافأة الله تعالى لأهل الإحسان:

أسلم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العبدري هذا بعد الحديبية، وهاجر هو وخالد بن الوليد معا، ودفع إليه رسول الله صلى الله عليه



وسلم يوم الفتح وإلى ابن عمه شيبة والد بني شيبة مفاتيح الكعبة، أقرها عليهم في الإسلام كما كانت في الجاهلية، ونزل في ذلك قوله تعالى:«إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا». الآية.[النساء: ٥٨].البداية والنهاية٣/٢٠٧.

هجرة المختار صلى الله عليه وسلم:

إنه لموقف عظيم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث بقي بمكة وأخرج أصحابه قبله مهاجرين تاركينه خلفهم، وهم الذين يفدونه بأرواحهم، وهو في نفس الوقت مستهدف من أعدائه الذين يتربصون به ليقتلوه كما ذكر الله تعالى: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ» [الأنفال: ٣٠].

لكنه القائد العظيم صلى الله عليه وسلم الذي يؤمِّن أصحابه متوكلاً هو على الله سبحانه موقناً بنصره جل وعلا وأنه لن يسلمه لأعدائه.

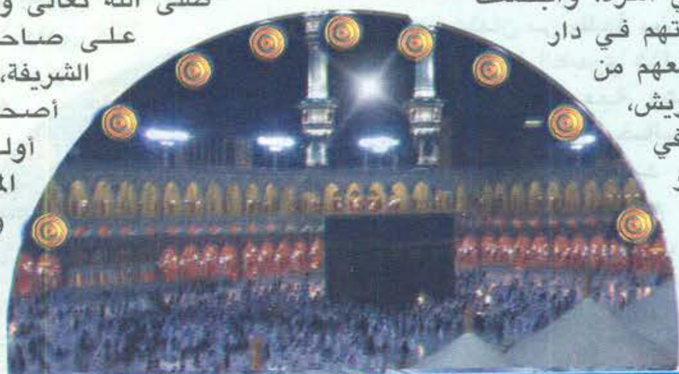
ثم إن في بقائه بمكة آخر الناس حماية لكل مسلم لم يهاجر، فلو أنه صلى الله عليه وسلم هاجر قبلهم لقضى المشركون على مَن أعلن إسلامه من أولئك المستضعفين.

يقول ابن خلدون رحمه الله: ولم يبق أحد من المسلمين بمكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أبو بكر وعلي بن أبى طالب فإنهما أقاما بأمره، وكان صلى الله عليه وسلم ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولما علمت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صار له شيعة وأنصار من غيرهم، وأنه مُجْمِع على اللحاق بهم، وأن أصحابه من المهاجرين سبقوه إليهم تشاوروا ما يصنعون في أمره، واجتمعت لذلك مشيختهم في دار الندوة... ومعهم من لا يُعد من قريش، فتشاوروا في حبسه أو إخراجه عنهم ثم اتفقوا على أن يتخيروا من كل قبيلة منهم فتًى شابًا جلدًا فيقتلونه جميعًا فيتفرق دمه في القبائل ولا يقدر بنو عبد مناف على حرب جميعهم، واستعدوا لذلك من ليلتهم وجاء الوحى بذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأمر علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه ويتوشح ببرده، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم فطمس الله تعالى على أبصارهم، ووضع صلى الله عليه وسلم على رؤوسهم ترابًا، وأقاموا طول ليلهم، فلما أصبحوا خرج إليهم علي رضى الله عنه ، فعلموا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد نجا.

النبي يطيِّب خاطر أصحابه بالمرور عليهم جميعًا

ووصل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ونزل بقباء وأقام هناك أياماً ثم نهض لما أمر الله، وأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاها في المسجد هنالك، ورغب إليه رجال بني سالم أن يقيم عندهم وتبادروا إلى خطام ناقته اغتنامًا لبركته، فقال عليه السلام: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة». ثم مشى والأنصار حواليه إلى أن مر بدار بني بياضة فتبادر إليه رجالهم يبتدرون خطام الناقة، فقال: «دعوها فإنها مأمورة»، ثم مر بدار بني ساعدة فتلقاه رجال وفيهم سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو ودعوه كذلك وقال لهم مثل ما قال للآخرين، ثم إلى دار بني حارثة بن الخزرج فتلقاه سعد بن الربيع وخارجة بن زيد وعبد الله بن رواحة، ثم مر ببني عدي بن النجار أخوال عبد المطلب ففعلوا وقال لهم مثل ذلك، إلى أن أتى دار بني مالك بن النجار فبركت ناقته على باب مسجده اليوم تاريخ ابن خلدون٢/١٤.

صلى الله تعالى وسلم وبارك على صاحب الهجرة الشريفة، ورضي عن أصحابه الكرام أولي المقامات المنيفة. والحمد لله رب العالمين.





تحذير الداعية من القصص الواهية

الحلقة (١٦٠)

قصة لطم أبي بكر رضي الله عنه لوجه ابنته عائشة رضي الله عنها لإيذائها النبي صلى الله عليه وسلم

إعداد/ علي حشيش

نواصل في هذا التحذير تقديم البحوث العلمية الحديثية حتى يقف القارئ على حقيقة هذه القصة التي تطعن في أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ويتخذها الشيعة سهمًا مسمومًا يرمون به أهل السنة في مناظراتهم، ولما كان أكثر الذين يناظرون هؤلاء الشيعة من القصاص والوعاظ ومع شهرتهم لا دراية لهم بالصنعة الحديثية فيصدمهم هؤلاء الشيعة بما في كتب السنة الأصلية من هذه القصص الواهية.

وهذا لم يكن قولاً يفترى، ولكن حقيقة يُبينها كتاب «ليالي بيشاور مناظرات وحوار» لمؤلفه المسمى آية الله السيد محمد الموسوي الملقب بـ«سلطان الواعظين الشيرازي»، ط مؤسسة البلاغ بيروت.

وكما عرف القارئ أن منهجنا في أبحاثنا لا يمسّ الشخص في اسمه أو رسمه، ولكن منهجنا «بيننا وبين القوم القوائم لا الشتائم».

وفي بيشاور كانت المناظرات بين السيد محمد الموسوي الشيرازي وبين علماء السنة كما هو مبين في «موضوع البحث» (ص١٢) من كتاب «ليالي بيشاور» الذي يحتوي على ما نقلته الصحف وسجلته الأقلام حول مجالس هذه المناظرات، والتي بلغت عشرة مجالس في (١١٦٧) صفحة.

ولقد جاء في «المجلس التاسع» من هذا الكتاب (ص٨٢٢) من بين عناصر هذا المجلس عنصر بعنوان: «إيذاء عائشة للنبي صلى الله عليه وسلم في حياته».

وفيه: قال علماء السنة وهم يحاورون الشيرازي: «نحن نظن أن سبب عدائكم وبغضكم عائشة رضي الله عنها، هو خروجها على الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وإلا فإن سلوكها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أحسن سلوك وليس لأحد انتقاد في ذلك، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرمها كثيرًا، ونحن نكرمها لإكرام النبي صلى الله عليه وسلم لها». اهـ.

قال الشيرازي: «سبب بغضنا لعائشة، ليس خروجها على الخليفة علي رضي الله عنه فحسب، بل لسوء سلوكها مع النبي صلى الله عليه وسلم، وإيذائها له أيضًا، وتمردها عليه صلى الله عليه وسلم وعدم إطاعتها له في حياته». اهـ.

قال علماء السنة: هذا بهتان عظيم، فإن كلنا نعلم بأن عائشة رضي الله عنها كانت أحب زوجات النبي صلى الله عليه وسلم إليه، فكيف كانت تؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي تقرأ في القرآن الكريم: «إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا» [الأحزاب: ٥٧].

قال الشيرازي: أيها الشيوخ، لقد تكرر منكم سوء التعبير ورميتموني بالافتراء والبهتان والكذب، ولكن سرعان ما تكشف الأمر، وثبت بأني غير كاذب ولا مفترٍ، بل أنا ناقل الأخبار من كتب علمائكم ومسانيد أعلامكم، فأخبار إيذاء عائشة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته لم تُذكر في كتب الشيعة وحدهم بل ذكرها بعض أعلامكم أيضًا منهم: أبو حامد محمد الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين» الجزء الثاني، الباب الثالث من كتاب آداب النكاح ص(١٣٥)، والمتقي الهندي في «كنز العمال» (١١٦/٧)، وأخرجه الطبراني في الأوسط، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد، من حديث عائشة قالوا: «وجرى بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين عائشة كلام حتى أدخل النبيُّ صلى الله عليه وسلم أبا بكر حكمًا بينهما، واستشهده، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: تتكلمين أو أتكلم؟ فقالت: بل تكلم أنت ولا تقل إلا حقًّا، فلطمها أبو بكر حتى دُمِي فوها فاستجارت برسول الله صلى الله عليه وسلم، وقعدت خلف ظهره، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «لَمْ نَدْعك لهذا، ولم نُرد هذا منك».

التحقيق حول ما نقله الشيرازي من الإحياء

١- هذه القصة الواهية والتي بنى عليها الشيرازي مناظراته، بل وجعلها أصلاً في إثبات فريته «إيذاء عائشة للنبي صلى الله عليه وسلم»، ويدعي أنه غير كاذب ولا مفترٍ بل هو ناقل الأخبار من كتب علماء

السنة ومسانيد أعلامهم.

ولا يدرى هو وأمثاله أن نقل الأخبار بغير تحقق لا يسمن ولا يغني من جوع عند من الحديث صناعته، فلا تغتر الشيعة بتلقيب الشيرازي «سلطان الواعظين»، فقد نقل هذا الخبر بغير تحقيق.

٢- وهذا الخبر الذي جاءت به هذه القصة نقله الشيرازي من كتاب «إحياء علوم الدين» حيث أورده أبو حامد الغزالي في «الإحياء» (٢/٤٤)، وهو لم يكن من مصادر الحديث الأصلية التي يبنى عليها التخريج؛ حيث إن مصادر الحديث الأصلية: هي كتب السنة التي جمعها مؤلفوها عن طريق تلقيها عن شيوخهم بأسانيد إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

٣- نقل الشيرازي الخبر باللفظ الذي أورده أبو حامد الغزالي في «الإحياء» وابتدأه الغزالي بلفظ: «جرى بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين عائشة كلام»، ولم يذكر له إسناد، وهذا مخالف لأصول رواية الحديث، حيث قال الإمام السيوطي في «التدريب» (١/٢٩٧) ط: «المكتبة العلمية بالمدينة»: «وإذا أردت رواية الحديث الضعيف بغير إسناد فلا تقل: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا، وما أشبهه من صيغ الجزم بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله، بل قل رُوِيَ عنه كذا أو بلغنا عنه كذا أو ورد عنه، أو جاء عنه أو نُقل عنه، وما أشبهه من صيغ التمريض كرُوِيَ، وكذا تقول فيما تشك في صحته وضعفه، أما الصَحيح فاذكره بصيغة الجزم، ويقبح فيه صيغة التمريض كما يقبح في الضعيف صيغة الجزم». اهـ.

قلت : وقد يلتمس للغزالي العذر في ذلك ؛ حيث إنه ليس من أهل هذا الفن.

٤- وبتطبيق هذه القواعد على هذا الخبر الذي جاءت به هذه القصة الواهية نجد أن هذا الخبر ضعيف ضعفًا شديدًا كما سنبين، وذكره الغزالي بصيغة الجزم، وهي: «فقال تتكلمين أو أتكلم؟»، ومرة أخرى بصيغة الجزم، «فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: لَمْ نَدْعُك لهذا، ولم نُرد هذا منك». اهـ.

قلت: وبهذا تتحقق القاعدة التي أوردناها «يقبح في الضعيف صيغة الجزم».

٥- وأما قول الشيرازي في مناظراته لشيوخ السنة: «أخرجه الطبراني في «الأوسط» والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» من حديث عائشة، لا يعفيه من المسئولية دون بيان مرتبته من الصحة أو الضعف ولو بالنقل عن بعض الأئمة، وهو بهذا الصنيع متوهم أنه قد قام بما يجب عليه من التحقيق، مع أن هذا الصنيع عند أهل الصناعة الحديثية لا يسمن ولا يغني من جوع، بل هو أقرب إلى الغش والتدليس على القراء منه إلى نصحهم ونفعهم، بل وكم من متوسع في التخريج توسعًا مملاً يسوِّد به عدة أسطر يسهِّله له الفهارس العلمية، بل والحاسوب في هذه الأيام خاصة، وإن كانت تدور حول طريق واحد، وعامة القراء لا يفرِّقون بين التخريج والتحقيق فيتوهمون من مجرد العزو لإمام من أئمة الحديث الصحة، ولا تلازم بينهما إلا في حالة العزو للإمامين البخاري ومسلم».

٦- وعدم ذكره للسند غش وتدليس؛ لأن القاعدة: «من أسند فقد أحال»، بل لفظ المتن لم ينقله عن الحافظين الطبراني والخطيب البغدادي، بل نقله بلفظه عن أبي حامد الغزالي من «الإحياء»، ومن المعلوم عند من له دراية بالحديث من استقرائه لأحاديث الإحياء يتصرف فيها الغزالي، وإن كانت في الصحيحين، ولولا الإسهاب لأوردت لذلك العديد من الشواهد.

٧- ومع نقل الشيرازي للخبر بلفظه من «الإحياء» للغزالي بغير سند وتصرف الغزالي في لفظ المتن عند الحافظين الخطيب والطبراني، لم يبين مرتبة الخبر، ولو بالنقل عن الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٢/٤٤)، حيث قال الحافظ العراقي في كتابه «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار»: «حديث جرى بينه صلى الله عليه وسلم وبين عائشة كلام حتى أدخل بينهما أبا بكر حكمًا» الحديث أخرجه الطبراني في الأوسط والخطيب في «التاريخ» من حديث عائشة بسند ضعيف.

٨- قلت: وهذا هو منهج الحافظ العراقي في كتابه «المغني» فيحتم على طالب العلم أن يعرف منهج العراقي في تخريج الأخبار ذلك المنهج الذي ذكره في مقدمة «المغني» حيث قال: «اختصرته في غاية الاختصار، ليسهل تحصيله وحمله في الأسفار، فاقتصرت فيه على ذكر: طرق الحديث، وصحابيه، ومخرجه، وبيان صحته أو حسنه أو ضعف مخرجه، فإن ذلك هو المقصود الأعظم عند أبناء الآخرة، بل وعند كثير من المحدثين عند المذاكرة والمناظرة، وأبين ما ليس له أصل في كتب الأصول، والله أسأل أن ينفع به إنه خير مسئول». اهـ.

أ- وإلى القارئ الكريم تفصيل ما اختصره الحافظ العراقي ليقف على حقيقة المتن ودرجة الضعف للخبر الذي جاءت به القصة:

ب- الخبر أخرجه الحافظ أبو بكر أحمد بن علي

الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (١١/٢٣٩/٥٩٨٥) ط «دار الفكر» قال: أخبرنا محمد بن رزق، حدثنا أبو القاسم عمر بن عبد العزيز بن دينار- إملاء- حدثنا محمد بن أحمد بن أبي العوام الرياحي حدثنا أبي أبو العوام حدثنا حفص بن عمر أبو عمر العمري حدثنا مبارك بن فضالة قال حدثني عبيد الله بن عمر عن القاسم بن محمد عن عائشة قالت: «كان بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم كلام فقال: بمن ترضين أن يكون بيني وبينك؟ أترضين بأبي عبيدة بن الجراح؟» قلت: لا، ذاك رجل لين يقضي لك عليَّ.
قال: «أترضين بعمر بن الخطاب؟».
قلت: لا، إني لأفرق من عمر.
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والشيطان يفرق منه».
فقال: «أترضين بأبي بكر؟».
قلت: نعم.
فبعث إليه فجاء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اقض بيني وبين هذه».
قال: أنا يا رسول الله؟
قال: نعم.
فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت له: اقصد يا رسول الله.
قالت: فرفع أبو بكر يده فلطم وجهي لطمة بدر منها أنفي ومنخراي دمًا، وقال: لا أم لك، فمن يقصد إذا لم يقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم.
فقال صلى الله عليه وسلم: «ما أردنا هذا». وقام فغسل الدم عن وجهي وثوبي بيده. اهـ.
قلت: ومن غريب ألفاظ هذا الخبر: «اقصد».
ولقد بيَّن معناه ابن منظور في «لسان العرب» (٣/٣٣٥) ط. دار الفكر، فقال: «القصد: العَدل».
ب- وهذا الخبر أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٠/٢١٥) من طريق المبارك بن فضالة عن عبيد الله بن عمر عن القاسم عن عائشة به، وآفة هذا الخبر المبارك بن فضالة.
قال الحافظ ابن حجر في «التقريب» (٢/٢٢٧) ط. دار المعرفة بيروت: «مبارك بن فضالة أبو فضالة البصري يدلس ويسوي». اهـ.
قلت: ويسمى هذا تدليس التسوية، ولا بد لطالب هذا العلم أن يتفهم معناه حتى تستبين له درجة الضعف لهذا الخبر.
قال الإمام السيوطي في «تدريب الراوي شرح تقريب النواوي» (١/٢٢٤) ط «المكتبة العلمية بالمدينة»: «تدليس التسوية سماه بذلك ابن القطان، وهو شر أقسامه». اهـ.
وهو رواية الراوي عن شيخه ثم إسقاط راوٍ ضعيف بين ثقتين لقي أحدهما الآخر.
قلت: وهذا ما بيَّن الحافظ زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي في «التقييد والإيضاح» (ص٩٥-٩٦) فقال: «شر الأقسام وهو الذي يسمونه تدليس التسوية، وقد سماه بذلك أبو الحسن بن القطان وغيره من أهل هذا الشأن، وصورة هذا القسم من التدليس: أن يجيء المدلس إلى حديث سمعه من شيخ ثقة، وقد سمعه ذلك الشيخ الثقة من شيخ ضعيف، وذلك الشيخ الضعيف يرويه عن شيخ ثقة، فيأتي المدلس الذي سمع الحديث من الثقة الأول فيسقط منه شيخ شيخه الضعيف، ويجعله من رواية شيخه الثقة عن الثقة الثاني بلفظ محتمل كالعنعنة ونحوها، فيصير الإسناد كله ثقات ويصرح هو بالاتصال بينه وبين شيخه لأنه قد سمعه منه، فلا يظهر حينئذ في الإسناد ما يقتضي عدم قبوله إلا لأهل النقد والمعرفة بالعلل». اهـ.
قلت: وهذا ينطبق تمام الانطباق على هذا الخبر الذي أخرجه الخطيب البغدادي من رواية المبارك بن فضالة.
فلا يغتر من لا دراية له بتدليس التسوية بتصريح مبارك بن فضالة بالسماع عند الخطيب؛ حيث قال مبارك بن فضالة حدثني عبيد الله بن عمر عن القاسم بن محمد عن عائشة، فلا بد أن يصرح بالسماع إلى الصحابي.
ولكن نجد أن هناك عنعنة في الإسناد بين شيخ مبارك وهو عبيد الله بن عمر وبين القاسم بن محمد، والراوي عبيد الله بن عمر من طبقة صغار التابعين، والقاسم بن محمد من الوسطى من التابعين ثم العنعنة الثانية بين القاسم بن محمد وبين عائشة رضي الله عنها، فالسند مردود لوجود أكثر من عنعنة بين تدليس التسوية وهو مبارك بن فضالة وبين عائشة رضي الله عنها، وهو شر التدليس؛ لسقوط ضعفاء في مواضع العنعنة بين هؤلاء الثقات، ولذلك في «سؤالات أبي عبيد الآجري لأبي داود السجستاني في الجرح والتعديل» السؤال (٣٩٦) ط الجامعة الإسلامية بالمدينة قال أبو عبيد: «سمعت أبا داود يقول: كان مبارك بن فضالة شديد التدليس». اهـ.

وكذلك أورده الحافظ ابن حجر في «طبقات المدلسين» الطبقة الثالثة (٢٧) وقال: «مبارك بن فضالة البصري مشهور بالتدليس، وصفه به الدارقطني وغيره». اهـ.
وقال الإمام النسائي في «الضعفاء والمتروكين» (٥٧٤) ط دار الوعي بحلب: «مبارك بن فضالة ضعيف». اهـ.
وقال الإمام الحافظ ابن رجب في «شرح علل الترمذي» (١١٩/١): «مبارك بن فضالة لم يخرج له في الصحيح، وسوى ابن معين بينه وبين الربيع بن صبيح في الضعف»، وقال نعيم: كان ابن مهدي لا يكتب للمبارك شيئًا إلا شيئًا يقول فيه سمعت الحسن.
وقال الفلاس: «كان يحيى وعبد الرحمن لا يحدثان عن مبارك».
وقال ابن معين: «لم يرو عنه يحيى». اهـ.
هذا، هو حال مبارك بن فضالة بين تضعيف الأئمة له، وبين شدة تدليسه واتصافه بشر أنواع التدليس وهو تدليس التسوية، وبهذا يصبح الخبر الذي جاء من طريقه ساقطًا؛ للسقط الخفي الذي لا يعرفه إلا أهل النقد والمعرفة بالعلل كما بينا آنفا من قول الحافظ العراقي في «التقييد والإيضاح»، وهذا الطريق الذي أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد، وابن عساكر كما في تاريخ دمشق كما بينا.

طريق آخر

ولقد بين الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» (٤٤/٢) أن الحديث الذي جاءت به القصة عند الطبراني حيث قال: «الحديث أخرجه الطبراني في الأوسط والخطيب في التاريخ من حديث عائشة بسند ضعيف»، ولقد بينا بالتفصيل الحديث عند الخطيب في «التاريخ» سندًا ومتنًا، وأظهر التحقيق مدى تصرف أبي حامد الغزالي في المتن والتدليس الشديد الذي في هذا الطريق.
أما عن قول الحافظ العراقي «الحديث عند الطبراني في الأوسط من حديث عائشة فقد أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٥٥/٥) (ح٤٨٧٦) ط «مكتبة المعارف الرياض» قال: حدثنا عباد بن سعيد الجعفي الكوفي قال: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي البهلول، قال: حدثنا صالح بن أبي الأسود عن الأعمش، عن مسلم أبي الضحى عن مسروق عن عائشة قالت: «كان بيني وبين النبي صلى الله عليه وسلم كلام فقال: اجعل بيني وبينك عمر، فقلت: لا، فقال: اجعل بيني وبينك أباك، قلت: نعم». الحديث.
قال الإمام الحافظ الطبراني: «لم يرو هذا الحديث عن الأعمش إلا صالح بن أبي الأسود». اهـ.

قلت: وهذا الطريق تالف لم يزد الطريق الأول عند الخطيب في «التاريخ» إلا وهنًا على وهن؛ حيث إن آفته صالح بن أبي الأسود ذكره الإمام الذهبي في «الميزان» (٢٧٧١/٢٨٨/٢) قال: «صالح بن أبي الأسود الكوفي الخياط عن الأعمش وغيره واه، وقال ابن عدي: أحاديثه ليست ليس بالمستقيمة، وليس بالمعروف». اهـ.
قلت: وصالح بن أبي الأسود ذكره الإمام الحافظ ابن عدي في كتابه «الكامل» (٦٦/٤) (٩١٥/٨) ط «دار الفكر» وقال: صالح بن أبي الأسود كوفي، وأحاديثه ليست مستقيمة، ثم أخرج له حديث القصة فقال: حدثنا الحسن بن علي بن الحسن السلولي الخلال الكوفي، حدثنا محمد بن الحسن السلولي حدثنا صالح بن أبي الأسود عن الأعمش عن أبي الضحى، عن مسروق عن عائشة قالت: «وقع بيني وبين النبي صلى الله عليه وسلم كلام...» القصة.
وقال: لا أعلم أحدا رواه عن الأعمش، غير صالح بن أبي الأسود بهذا الإسناد». اهـ.
وفي القصة بهذا الإسناد لطم أبي بكر رضي الله عنه بيده لوجه ابنته عائشة رضي الله عنها.
وأخرج الحافظ ابن عدي هذا الحديث الذي جاءت به القصة، وجعلها من مناكير صالح بن أبي الأسود، ثم ذكر له عدة أحاديث منكرة، ثم قال: ولصالح من الحديث غير ما ذكرت عن الأعمش وغيره وفي أحاديثه بعض النكرة وليس هو بذلك المعروف. اهـ.
وقول الحافظين الطبراني في «الأوسط» وابن عدي في «الكامل» بعد إخراج الحديث الذي جاءت به هذه القصة: «لم يرو هذا الحديث عن الأعمش إلا صالح بن أبي الأسود»، وقد تبين أن صالح بن أبي الأسود واه، أحاديثه ليست مستقيمة، أما الأعمش فهو سليمان بن مهران ذكره الحافظ ابن حجر في «طبقات المدلسين»، المرتبة الثانية (٢٢) وقال: وصفه الكرابيسي والدارقطني وغيرهم بالتدليس وقد عنعن في الطريقين إلى صالح بن أبي الأسود عن الأعمش عن أبي الضحى، فهو مردود وبتدليس الأعمش وعنعنته يزداد الطريق وهنًا على وهن.
بهذا التحقيق تصبح القصة واهية وطريق الطبراني في «الأوسط» لا يزيد طريق الخطيب في «التاريخ» إلا وهنًا على وهن.
حفظ الله أم المؤمنين من افتراءات المكذبين المدلسين، بأبي وأمي أنت يا أمنا.
هذا ما وفقني الله إليه وهو وحده من وراء القصد.

المذهب الوسطي لأبي الحسن الأشعري في توحيد الصفات

ملامح وقواعد المنهج الوسطي لدي الأشعري في معتقد توحيد الصفات

الحلقة الخامسة عشرة

إعداد/ أ.د. محمد عبد العليم الدسوقي
الأستاذ بجامعة الأزهر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.. وبعد:

فقد سبق أن ذكرت أن ثمة قواعد أقام الأشعري على أساسها تصوره في معالجة ما هُدي إليه من إثبات ما أثبته تعالى لنفسه وأثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم، وأوضحتُ أن أولى هذه القواعد كان يتمثل في اعتماد الوحي، وثانيها في اعتماد أدلة العقل المستوحاة من أدلة الشرع.. ونستكمل في ثالث تلك القواعد ما ذكره بشأن:

الأخذ بظواهر النصوص في الآيات الموهمة للتشبيه دون ما وقوع في التشبيه أو التجسيم، والإقرار بالإجماع في ذلك وبأحاديث الآحاد:

فالأشعري - على ما رأينا - لا يصرف أي النصوص وأحاديثها عن ظاهر معناها بزعم أنها موهمة للتشبيه أو التجسيم، ويُقر في ذلك - وكذا في سائر مسائل الاعتقاد المعلومة بالضرورة - بالإجماع وبأحاديث الآحاد طالما ثبتت صحتها.. وفي كلام للدكتور محمد أبي زهرة نراه يشهد بهذا في كتابه (ابن تيمية حياته وعصره) ويفيد في ص ١٨٩: ١٩١ أن الأشعري قد ظهرت معالم منهجه وتحددت في أربع نقاط، هي:

١- أنه يري أن يأخذ بكل ما جاء به الكتاب والسنة من عقائد، ويحتج بكل وسائل الإقناع والإفحام.

٢- أنه يأخذ بظواهر النصوص في الآيات الموهمة للتشبيه من غير أن يقع في التشبيه، فهو يعتقد أن لله وجهاً لا كوجه العبيد، وان لله يداً لا تشبه أيدي المخلوقات.

٣- أنه يرى أن أحاديث الآحاد طالما صحت يُحتج بها في العقائد وهي دليل لإثباتها، وقد أعلن اعتقاد أشياء ثبتت بأحاديث الآحاد.. خلافاً لمن يرى عكس ذلك ويخالف - بما يجنح إليه - إمام المذهب.. وما أكثر المخالفين له ممن يدَّعون شرف الانتساب إليه، ليس في هذه المسألة فحسب، بل وفي جل ما رجع إليه في غير باب الصفات.

٤- أنه في آرائه كان يجانب أهل الأهواء جميعاً ويجتهد في ألا يقع فيما وقعوا فيه، ويعقب أبو زهرة على ذلك بقوله: «وقد سلك الأشعري في الاستدلال على العقائد مسلك النقل ومسلك العقل، فهو يثبت ما جاء به القرآن الكريم والحديث الشريف من أوصاف الله، ومن الإيمان برسله واليوم الآخر والملائكة والحساب والعقاب والثواب، ويتجه إلى الأدلة العقلية والبراهين المنطقية يستدل بها على صفات الله سبحانه وتعالى».

وهذا في جملته هو عينه ما قررته د. فوقية حسين وهي تتحدث عن منهج أبي الحسن الأشعري في مقدمتها لـ (الإبانة)١/١١٠: ١٣٤، وتُبين أنها خرجت من خلال كتبه بعدة أصول، هي في جملتها الأصول التي كان عليها السلف الصالح، وهي كما يلي:

١- إعطاء الأولوية للنص المنزل قرآناً كان أم سنة

٢- تفسير القرآن بالقرآن

٣- تفسير القرآن بالحديث

٤- أخذه بما أجمع عليه السلف قبله

٥- الاعتقاد واليقين بأن الله خاطب العرب بلغتهم

٦- مراعاة أسباب النزول

٧- مراعاة الخصوص والعموم

٨- أن القرآن الكريم على ظاهره وليس لنا أن نزيله عن ظاهره إلا بحجة أو قرينة، وإلا فهو على

ظاهره.. والدكتورة في كل ما ذكرَتْه تقيم الأدلة وتسوق الشواهد، فليراجع ما كتبته بهذا الصدد لكونه من الأهمية بمكان.

والذي يعنينا هنا بصورة أخص، هو بسط الكلام عن الأصل الأخير لكونه موضع النزاع لدى المخالفين أو المُلَبَّس عليهم مذهب الأشعري، وأيضاً لشديد تعلقه ببيان أن صحيح معتقد السلف إنما يتمثل في إثبات صفات الله تعالى الواردة في نصوص الوحي وحملها على ظاهرها دون ما تشبيه أو تجسيم أو تأويل أو تكييف أو تفويض.

مصدر التلقي عند الأشعري: الأخذ بظاهر صحيح المنقول غير المتعارض - بالطبع - مع صريح المعقول:

وقد بدا هذا من الأشعري واضحاً عند تناوله للرأي القائل بأن المقصود من قوله تعالى: «إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ» [القيامة:٢٣]، أي إلى ثواب ربها ناظرة، فبين أن ثواب الله غيره، وأن «القرآن العزيز على ظاهره، وليس لنا أن نزيله عن ظاهره إلا بحجة، وإلا فهو على ظاهره»، يقول في الإبانة ت. د. فوقية حسين ٤٠/٢: «ألا ترى أن الله عز وجل لما قال: صلوا لي واعبدوني - يعني في قوله: «فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي» [طه:١٤] - لم يجز أن يقول قائل: إنه أراد غيره، ويزيل الكلام عن ظاهره، فكذلك لما قال: «إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ» [القيامة:٢٣]، لم يَجز لنا أن نزيل القرآن عن ظاهره بغير حجة».

ويؤكد الأشعري هذا المبدأ أيضاً عند مناقشته لرأي الخصوم حول قوله تعالى: «لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ» [الأنعام:١٠٣]، وذلك في الإبانة ٦١/٢، ويؤكده ثالثة ١٣٨/٢ إبان تناوله لبعض أقوال الخصوم عن إثبات (أيدي) لله تعالى، حيث يفصح عن وجوب الرجوع إلى إثبات (يدين)، قائلاً: «لأن الدليل عنده - أي الخصم - دل على صحة الإجماع - يعني: على بطلان إثبات أن لله (أيدي) - وإذا كان الإجماع صحيحاً وجب أن يرجع من قوله: (أيدي) إلى (يدين)، لأن القرآن على ظاهره، ولا يزول عن ظاهره إلا بحجة، فوجدنا حجةً أزلنا بها ذكر الأيدي عن الظاهر إلى ظاهر آخر، ووجب أن يكون الظاهر الآخر على حقيقته لا يزول عنها إلا بحجة» أ.هـ.

ويتمسك الأشعري بنفس الأصل عند مناقشته - بنفس الصفحة - قولهم بأن الله أراد يداً واحدة، فيبين أن الله تعالى قد «ذكر (أيدي) وأراد (يدين)، لأنهم أجمعوا على بطلان قول من قال: (أيدي كثيرة)، وقول من قال: (يداً واحدة)»، ثم يثبت: «وقلنا: (يدان)، لأن القرآن على ظاهره، إلا أن تقوم حجة بأن يكون على خلاف الظاهر»، وإنما يعني بذلك القرينة الصارفة لما هو راجح، وليس أرجح من تفسير القرآن بالقرآن.

تقول د. فوقية في تحقيقها للإبانة ١٢٨/١: «وبهذا يؤكد الأشعري أهم أصل من أصول التفسير الصحيح، وهو: عدم إزالة القرآن عن ظاهره إلا بحجة».

موافقة الأشعري فيما أخذ به في مصادر تلقيه لما عليه سلف الأمة:

على أن هذا الذي تقرر لدى الأشعري - من إجراء الصفات الواردة في نصوص الوحي على ظاهرها - هو الذي عليه سائر أئمة المسلمين.. ونقتطف من بستان حدائقهم ما قاله الحافظ أبو بكر الخطيب ت ٤٦٣ وذلك فيما نقله عنه الحافظ الذهبي ص ١٨٥ قال: «أما الكلام عن الصفات، فأما ما روي منها في السنن الصحاح، فمذهب السلف: إثباتها وإجراؤها على ظواهرها، ونفي الكيفية والتشبيه عنها».. وما قاله القاضي أبو يعلى ت ٤٥٨ في كتابه (إبطال التأويل) وقد نقله عنه الذهبي أيضاً في (العلو) ص ١٨٣، قال: «ويدل على إبطال التأويل، أن الصحابة ومن بعدهم حملوها على ظاهرها، ولم يتعرضوا لتأويلها ولا صَرْفها عن ظاهرها، فلو كان التأويل سائغاً لكانوا إليه أسبق، لما فيه من إزالة التشبيه»، يعني على زعم من قال: إن ظاهرها تشبيه.. كذا فسره الذهبي وعلق يقول:

«المتأخرون من أهل النظر قالوا مقالة مولدة، ما علمتُ أحداً سبقهم بها، قالوا: (هذه الصفات تمر كما جاءت ولا تؤول، مع اعتقاد أن ظاهرها غير مراد)، فتفرع من هذا أن الظاهر يُعني به أمران:

أحدهما: أنه لا تأويل لها غير دلالة الخطاب كما قال السلف: (الاستواء معلوم)، وكما قال سفيان وغيره: (قراءتها تفسيرها)، يعني أنها بينة واضحة في اللغة لا يُبتغى لها مضايق التأويل والتحريف، وهذا هو مذهب السلف، مع اتفاقهم أيضاً على أنها لا تشبه صفات البشر بوجه، إذ الباري لا مثل له لا في ذاته ولا في صفاته.

الثاني: أن ظاهرها هو الذي يتشكل في الخيال من الصفة، كما يتشكل في الذهن من وصف البشر، فهذا - هو الذي ظاهره - غير مراد».. إلى آخر ما ذكره من كلام حريٍّ بالتأمل والتدبر والعمل به.

ويقول الحافظ أبو القاسم التيمي الأصبهاني ت٥٣٥ وقد نقله عنه الذهبي في العلو ص ١٩٢: «مذهب مالك والثوري والأوزاعي والشافعي وحماد

بن سلمة وحماد بن زيد وأحمد والقطان وابن مهدي وإسحاق بن راهويه، أن صفات الله التي وصف بها نفسه ووصفه بها رسوله من السمع والبصر والوجه واليدين وسائر أوصافه، إنما هي على ظاهرها المعروف المشهور، من غير كيف يُتوهم فيها، ولا تشبيه ولا تأويل، قال ابن عيينة: (كل شيء وصف الله به نفسه فقراءته تفسيره)، أي هو على ظاهره لا يجوز صرفه إلى المجاز بنوع من التأويل».

وفي توضيح ما سبق بصورة أجلى يقول شارح السفارينية ص ٩٦، ٩٧: "من يقول: (إن ظاهر اليدين حقيقة تقتضي المماثلة)، نقول له: (إن ظاهر المضافتين إلى الله حقيقة، يقتضي - بموجب أدلة العقل - امتناع المماثلة، لأنها يدٌ أضيفت إلى متصف بها، ومن المعلوم أن ما أضيف إلى الشيء فإنه يكون لائقاً به، فاليدان اللتان أضافهما الله إلى نفسه، يدان لائقتان بالله عز وجل، لا يمكن أن تُماثل أيدي المخلوقين، ألم تكن تقول: (يد إنسان)، و(يد حمار)، و(يد جمل)، و(يد هرٍّ)، و(يد أسد)؟، هل أحد من الناس يعتقد التماثل في هذه الأيدي؟!.. أبداً، لأنها مضافة إلى متصف بها، فتكون هذه الأيدي لائقة بالموصوف به، لكن إذا قلت: (يد أسد ويد أسد آخر)، صارت مماثلة.. فإذا علم التباين بين المخلوقات بعضها مع بعض، فالتباين بين الخالق والمخلوق من باب أولى، ومن اعتقد أن ظاهر نصوص الكتاب والسنة: التمثيل، فقد كفر، لأن تمثيل الله بخلقه كفر.. ومن زعم أن ظاهر الكتاب والسنة يقتضي الكفر فهو كافر، لأن الكتاب والسنة يقران الإيمان وينكران الكفر، ولهذا قال نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخاري: (من شبَّه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله نفسه ولا رسوله تشبيهاً)"، **(وننبه أن أحكام الكفر التي نقلناها هذه هي لبحث مسألة علمية وليست للحكم على المعين لأن الحكم على المعين كما هو معلوم له إلى ضوابط شرعية من توفر شروط وانتفاء موانع).**

وأردف يقول: "فالحاصل أننا إذا أخذنا بظاهر النصوص لم نكن ممثلين، بل نحن - معاشر أهل السنة - أبعد الناس عن التمثيل، والممثل حقيقة هو: الذي صرف النصوص عن ظاهرها، هو الذي جعل النصوص دالة على التمثيل، لأنه لم يصرفها عن ظاهرها إلا حيث اعتقد أن ظاهرها يقتضي التمثيل، فلما اعتقد هذه العقيدة الباطلة ذهب يصرفها عن ظاهرها، ولهذا نقول: كل معطل فهو ممثل، لأنه لم يعطل إلا حيث اعتقد أن ظاهرها التمثيل، فذهب يصرفها عن ظاهرها ويعطل مدلولها عما أراده الله" أ.هـ مع شيء من التصرف.

رد دعاوى عدم الأخذ بأحاديث الآحاد في مسائل توحيد الصفات:

على أن معتقد الأشاعرة الذي يدينون به - ويدَّعون من خلاله أن أحاديث الآحاد وهي المروية بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط عن مثله حتى ينتهي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا تفيد العلم اليقيني فيما يعارض بزعمهم القانون العقلي بمسائل الاعتقاد، ويمثلون له بالصفات الخبرية والفعلية - ويخالفون فيه مذهب شيخهم، يرد علي ما قالوه بما يلي:

١- مخالفته لما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم في مثل قوله فيما أخرجه الحاكم والترمذي: (نضر الله امرأ سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها كما سمعها.. الحديث).

٢- مخالفته لما كان عليه فعله صلى الله عليه وسلم، فقد كان يرسل الرسل فرادى لتبليغ الإسلام، كما أرسل سفراءه إلى ملوك العرب والعجم، وكما أرسل معاذاً إلى أهل اليمن ليكون أميراً ووالياً عليهم من قِبَله صلى الله عليه وسلم.

٣- إجماع الصحابة، فقد "كان أحدهم إذا رَوى لغيره حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصفات تلقاه بالقبول واعتقد تلك الصفة به تعالى على القطع واليقين وأيقن بثبوت مقتضاها بمجرد سماعها من العدل الصادق، كما اعتُقد رؤية الرب وتكليمه ونداءه يوم القيامة لعباده بالصوت الذي يسمعه البعيد كما يسمعه القريب، ونزوله إلى سماء الدنيا كل ليلة، وضحكه وفرحه وإمساك سماواته على إصبع من أصابع يده، وإثبات القَدم له.. وعليه، فهذا الذي اعتمده نُفاة العلم عن أخبار رسول الله، قد خرقوا به إجماع الصحابة المعلوم بالضرورة وإجماع التابعين وأئمة الإسلام، ووافقوا به المعتزلة والجهمية والرافضة والخوارج الذين انتهكوا هذه الحرمة[مختصر الصواعق ص ٥٧٢، ٥٧٣ بتصرف]".

٤- أن السنة العملية التي جرى عليها صلى الله عليه وسلم وأصحابه في حياته وبعد مماته، أن حديث الآحاد حجة قائمة بذاتها، يدل عليها ما أورده البخاري في باب: (ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام) ٢٤٤/١٣ وما ساقه رحمه الله من أحاديث منها:

أ- حديث مالك بن الحويرث قال: أتينا النبي صلى

الله عليه وسلم ونحن شببة متقاربون، فأقمنا عنده نحواً من عشرين ليلة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم رحيماً رفيقاً، فلما ظن أنا قد اشتهينا أهلنا سألنا عمن تركنا بعدنا فأخبرناه، فقال: (ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعلموهم ومروهم وصلوا كما رأيتموني أصلي).. صحيح البخاري رقم: ٧٢٤٦.

فقد أمر كل واحد من هذه الشببة أن يعلم أهله، والتعليم يعم بالطبع أمور العقيدة التي يأتي على رأسها التعرف على الخالق جل وعلا بصفات كماله، فلو لم يكن خبر الآحاد تقوم به الحجة لما كان لهذا الأمر معنى.

ب- حديث أنس بن مالك الذي فيه: أن أهل اليمن قدموا على رسول الله فقالوا: ابعث لنا رجلاً يعلمنا السنة والإسلام)، قال: فأخذ بيد أبي عبيدة، فقال صلى الله عليه وسلم: (هذا أمين هذه الأمة).. فلو لم تقم الحجة بخبر الواحد لما بعث صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة وحده، وكذلك يقال في بعثه صلى الله عليه وسلم إليهم في نوبات مختلفة وإلى بلاد متفرقة غيره من الصحابة كعلي بن أبي طالب وأبي موسى الأشعري وغيرهما، وأحاديثهم في الصحيحين، ومما لا ريب فيه أن هؤلاء كانوا يعلمون الذين أرسلوا إليهم في جملة ما يعلمونهم: العقائد، فلو لم تكن الحجة قائمة بهم عليهم لما بعثهم صلى الله عليه وسلم أفراداً، ولكان بعثه بهم عبثاً وهذا أمر يتنزه عنه بأبي هو وأمي.. وهذا معنى قول الشافعي في الرسالة ص ٤١٢: "وهو صلى الله عليه وسلم لا يبعث بأمره إلا والحجة للمبعوث إليهم وعليهم قائمة بقبول خبره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كان قادراً على أن يبعث إليهم فيشافههم أو يبعث إليهم عدداً"

جـ- خبر عبد الله بن عمر وفيه: (بينا الناس بقباء في صلاة الصبح، إذ جاءهم آت فقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة، فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام، فاستداروا إلى الكعبة).. فهذا نص على أن الصحابة قبلوا خبر الواحد في نسخ ما كان مقطوعاً عندهم من وجوب استقبال بيت المقدس، فتركوا ذلك واستقبلوا الكعبة لخبره، فلولا أنه حجة عندهم ما خالفوا به المقطوع عندهم من القبلة الأولى بل ولما شكروا عليه.

٥- ومما يدل عليه أن السلف الصالح وأئمة الإسلام وأصحاب المذاهب لم يزالوا يقولون في كتب السنة الصحيحة وفي إثبات الصفات وسائر أمور الاعتقاد: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا، وفعل كذا، وأمر بكذا، ونهى عن كذا، وهذا معلوم في كلامهم بالضرورة، وإنما سمعه الواحد منهم من صحابي غيره، وهذه شهادة من القائل وجزم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بما نسب إليه من قول أو فعل، فلو كان خبر الواحد لا يفيد العلم اليقيني ولا تثبت عقيدة لكان شاهداً على رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير علم، وهذا ما لا يقوله مسلم.

٦- أن القائلين بأن أحاديث الآحاد لا تثبت به عقيدة بحجة أنها ظنية، يقولون في الوقت ذاته: (إن الأحكام الشرعية تثبت بحديث الآحاد)، وهم بهذا يفرقون بين العقائد والأحكام بلا دليل من كتاب أو سنة وبدون مخصص، وذلك باطل، وما لزم منه باطل فهو باطل.

٧- أن احتجاجهم فيما فاهوا به بقول الله تعالى: (إن الظن لا يغني من الحق شيئاً.. يونس/٣٦)، ونحو ذلك من الآيات، بحجة أن المراد بالظن في الآي هو الظن الغالب، يرد عليه أن الظن المراد بالآي ليس ذلك، بل الشك الذي هو الخرص، فقد جاء في كتب اللغة: "الظن: الشك يعرض لك في الشيء فتحققه وتحكم عليه".. فهذا هو الظن الذي عابه الله على المشركين، بدليل قوله تعالى: (إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون.. الأنعام/١١٦)، فجعل الظن المعاب على المشركين في هذه الآيات هو الخرص الذي هو مجرد التخمين، ولو كان مراد به الظن الغالب لما جاز الأخذ به في الأحكام أيضاً، لأن الله أنكره عليهم إنكاراً مطلقاً.. كما أن فرار القائلين بعدم الأخذ بالظن الراجح في العقيدة، أوقعهم فيما هو أسوأ منه وهو قولهم بالظن المرجوح الذي على أساسه أولوا صفات الخالق سبحانه، وما ذلك إلا لابتعادهم عن التفقه بالكتاب والسنة والاهتداء بنورهما مباشرة والانشغال عنهما بآراء الرجال.

٨- أن التفريق بين العقيدة والأحكام في وجوب الأخذ فيها بأحاديث الآحاد فلسفة دخيلة في الإسلام لا يعرفها السلف الصالح ولا الأئمة الأربعة الذين يقلدهم جماهير المسلمين في كل عصر.

والحق الكلام في ذلك كثير، ولكن حسبنا منه ما ذكرنا لينظر في تفاصيله: الشروح الوافية على العقيدة الطحاوية للألباني ص١/٢٩٥: ٢٩٩، والرسالة للشافعي، وإعلام الموقعين ٢/١٨٥، ومختصر الصواعق ص ٥٧١: ٦٤٠.. وإلى لقاء آخر بمشيئة الله تعالى نستكمل الحديث عن مصادر التلقي لدى الأشعري.

والحمد لله رب العالمين.

عوامل الصبر والثبات

الحلقة الثانية

العامل الثاني: القيادة التي تهوى إليها الأفئدة؛ النبي صلى الله عليه وسلم

إعداد/ المستشار أحمد السيد علي إبراهيم

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه، وبعد: نتكلم عن بعض العوامل التي ذكرها أهل العلم مما يعين على الصبر والثبات، وهذه العوامل التي اخترناها على سبيل الإجمال هي:

١- الإيمان بالله.
٢- القيادة التي تهوى إليها الأفئدة .
٣- الشعور بالمسئولية .
٤- الإيمان بالآخرة .
٥- القرآن الكريم .
٦- البشارات بالنجاح.

وقد سبق الحديث عن العامل الأول الإيمان بالله بالتفصيل في المقال السابق ؛ ونتكلم في هذه الحلقة عن العامل الثاني وهو: القيادة التي تهوى إليها الأفئدة، بالتفصيل فنقول وبالله تعالى التوفيق:

أولا: معنى: القيادة التي تهوى إليها الأفئدة:

قال المباركفوري في الرحيق المختوم: ص٩٦ " لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم - وهو القائد الأعلى للأمة الإسلامية، بل وللبشرية جمعاء - يتمتع من جمال الخلق، وكمال النفس، ومكارم الأخلاق، والشيم النبيلة، والشمائل الكريمة، بما تتجاذب إليه القلوب، وتتفانى دونه النفوس، وكانت أنصبته من الكمال الذي يحبّبُ لم يرزق بمثلها بشر. وكان على أعلى قمة من الشرف والنبل والخير والفضل. وكان من العفة والأمانة والصدق، ومن جميع سبل الخير على ما لم يتمار ولم يشك فيه أعداؤه فضلاً عن محبيه ورفقائه. "اهـ.

وقد كان لوجود النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه أثر كبير في نفوسهم جعلهم يصبرون ويثبتون، وامتد هذا بعد وفاته صلى الله عليه وسلم طاعةً لأمره ؛ حيث قال: (تركتُ فيكم أمرين؛ لن تَضلُّوا ما إن تمسَّكتُم بهما: كتابَ اللَّه وسُنَّتي، ولن يتفرَّقا حتَّى يردا عليَّ الحوضَ) (رواه مالك في الموطأ وحسنه الألباني)، وقوله: (فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المَهْديين، عَضوا عليها بالنَّواجذ، وإيَّاكم والأمورَ المُحْدَثات؛ فإن كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ) (رواه ابن ماجه وصححه الألباني).

ثانيا: بيان العلاقة بين القيادة التي تهوى الأفئدة والصبر بأنواعه:

١- عن أم سلمة هند بنت أمية رضي الله عنها قالت: (سمعتُ رسولَ الله صلى اللهُ عليه وسلَّمَ يقول: ما من عبدٍ تصيبُه مصيبةٌ فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون. اللهمَّ! أْجُرْني في مصيبتي وأَخلفْ لي خيرًا منها - إلا أجَره اللهُ في مصيبتِه. وأخلفَ له خيرًا منها. قالت: فلما توفي أبو سلمةَ قلتُ كما أمرني رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. فأخلفَ اللهُ لي خيرًا منه. رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ). (رواه مسلم) فقد علم النبي صلى الله عليه وسلم الأمة الصبر على المصائب، والاسترجاع عند وقوعها؛ امتثالاً لقوله تعالى: « وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ» [البقرة ١٥٥ -١٥٧]، ولأن المصيبة وقعت؛ فإذا صبر المسلم كان له أجرها، وإذا جزع كان عليه وزرها، قال علي بن أبي طالب: (إنك إن صبرت جرت عليك المقادير وأنت مأجور، وإن جزعت جرت عليك المقادير وأنت مأزور)، قال تعالى: « وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ» (إبراهيم ٧).

ولا يظن ظانٌّ أن المصيبة قاصرة على الموت لقوله تعالى: « فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ» (المائدة ١٠٦)، وإنما المصيبة أعم من ذلك فتشمل كل ما يكرهه الإنسان، فعن عبد الله بن خليفة قال: " كنت مع عمر في جنازة فانقطع شسع نعله (سير يمسك النعل بأصابع القدم) فاسترجع، ثم قال: كل ما ساءك فهو لك مصيبة".

٢- عن أنس، أن حارثة بن سراقة قُتل يوم بدر وكان في النظارة، أصابه سهم غرب فقتله، فجاءت أمه فقالت: يا رسول الله أخبرني عن حارثة، فإن كان في الجنة صبرت وإلا فليرين الله ما أصنع، يعنى من النياحة. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ويحك أهبلت؟ إنها جنان ثمان، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى، فرجعت تضحك وتقول: بخ بخ يا حارث" (رواه الشيخان).

فانظر أخي الحبيب كيف نزلت كلمات النبي صلى الله عليه وسلم بردًا وسلامًا على قلب أم حارثة؟ فتبدل حالها من الجزع على فقدها لولدها، إلى السرور والفرح بمكانته عند ربه، وقارن بين حالها، وحال البعض من المسلمين الآن إذا مات ولده يجزع ويسخط ولا يرضى بقضاء الله تعالى، وربما نطق بما لا يجوز في حق الله سبحانه، وما ذاك إلا لأنه لم يتمسك بهديه صلى الله عليه وسلم في الصبر على المصائب.

٣- عن عطاء بن رباح قال: قال لي ابنُ عباس: ألا أُريك امرأةً من أهل الجنة؟ قلتُ: بلى. قال: هذه المرأةُ السوداءُ؛ أتتَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالت " إني أُصْرَعُ. وإني أتكشَّفُ. فادعُ اللهَ لي. قال: "إن شئتِ صبرت ولك الجنةُ. وإن شئتِ دعوتُ اللهَ أن يعافيك". قالت: أصبرُ. قالت: فإني أتكشَّفُ. فادعُ اللهَ أن لا أتكشَّفُ. فدعا لها) (رواه البخاري ومسلم).

فهذه المرأة ابتلاها الله عز وجل بالصرع، وقد شق عليها ذلك، فذهبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدعو الله لها أن يعافيها من هذا البلاء، فإذا بالنبي صلى الله عليه وسلم يخيرها بين الصبر على هذا البلاء، ولها الجنة على صبرها، وبين الدعاء لها بالشفاء، وتخييره صلى الله عليه وسلم يدل على أن التداوي في حالتها ليس بواجب؛ إذ إن الواجب ما لا تخيير فيه، ولو كان واجبًا ما تركه صلى الله عليه وما خيَّرها فيه، وإذا بالمرأة المؤمنة المحتسبة بعدما سمعت كلمات التثبيت والصبر، تختار الصبر على البلاء، ولأنها حرة عفيفة سألت النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو الله لها ألا تتكشف إذا جاءها الصرع، فدعا لها النبي صلى الله عليه وسلم فلم تنكشف بعد ذلك.

وقارن أخي الحبيب بين حال هذه المرأة، وحال البعض منا الآن إذا ابتلاه الله بالمرض يجزع ويسخط، ويذهب إلى الطبيب، ويطلب منه أقوى الأدوية لمرضه، فإذا تناول الدواء ولم يشفه الله قال: لقد تناولت الدواء ولم يشفني، وكأن الدواء هو الشافي، والبعض يذهب لأمهر الأطباء قائلاً: خذ ما تشاء واشف مريضي، والبعض يقوم بتحطيم المستشفيات، ويعتدي على الأطباء إذا مات قريب له، وكأن الطبيب سيمنعه من الموت، والبعض يلتمس التداوي بالمحرمات، والبعض يذهب إلى العرافين والدجالين والقساوسة بالكنائس يلتمسون عندهم الشفاء!! ولو علموا سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، وتمسكوا بهديه في التداوي لصبروا على بلاء المرض ، وانتظروا من

الله الشفاء والعافية.

ثالثا: علاقة هذا العامل بالصبر على الطاعات:

١- عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: (صلَّيتُ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذاتَ ليلة. فافتتح البقرةَ. فقلتُ: يركع عند المائة. ثم مضى. فقلتُ: يصلي بها في ركعة. فمضى. فقلتُ: يركع بها. ثم افتتح النساءَ فقرأها. ثم افتتح آلَ عمرانَ فقرأها. يقرأ مُترسِّلاً. إذا مرَّ بآية فيها تسبيحٌ سبَّحَ. وإذا مرَّ بسؤال سأل. وإذا مرَّ بتعوُّذ تعوَّذَ. ثم ركع فجعل يقول: "سبحانَ ربيَ العظيم" فكان ركوعُه نحوًا من قيامه. ثم قال: "سمعَ اللهُ لمن حمدَه" ثم قام طويلاً. قريبًا مما ركع. ثم سجد فقال: "سبحان ربيَ الأعلى فكان سجودُه قريبًا من قيامه) (رواه مسلم).

فانظر أخي الحبيب إلى صبر حذيفة رضي الله عنه على طاعة الله، وكيف صبر على الوقوف الساعات الطوال يصلي النافلة مع النبي صلى الله عليه وسلم، وهو يقرأ البقرة والنساء وآل عمران (قيل في هذا دليل على القراءة بغير ترتيب، وقيل: بل كان هذا منه صلى الله عليه وسلم قبل ترتيب المصحف)، وقراءتهم باسترسال تستغرق قرابة الساعتين أو الثلاث، ثم ركع قرابة الساعتين، ثم رفع من الركوع ووقف طويلاً قريبًا من ركوعه، ثم سجد طويلاً قريبًا من قيامه، فما الذي أعان حذيفة على صبره هذا؟ إنه النبي صلى الله عليه وسلم، فمن صلى معه صبر على طاعة الله عز وجل، فقد كان أصحابه يرون أن عدم الصبر على الطاعة معه من أمور السوء، فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: (صلَّيتُ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ليلةً، فلم يزلْ قائمًا حتى هممتُ بأمْرِ سوء. قلنا: وما هممتَ؟ قال: هممتُ أن أقعُدَ وأذَرَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ) (رواه البخاري).

٢- عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه قال: (دخلت على عمرَ بن الخطاب وهو مسجًى فقلت: كيف ترونه؟ قالوا: كما ترَى. قلتُ: أيقظوه بالصلاة؛ فإنكم لن توقظوه لشيءٍ أفزعَ له من الصلاة. فقالوا: الصلاة يا أميرَ المؤمنين! فقال: ها الله إذًا، ولا حقَّ في الإسلام لمن ترك الصلاةَ، فصلَّى وإنَّ جرحَه ليثعبُ دمًا) (رواه مالك في الموطأ بسند صحيح).

وانظر أخي الحبيب إلى حال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وصبرهم على طاعة الله حتى وهم مشرفون على الموت، فهذا المسور يدخل على عمر وقت صلاة الظهر، وقد طعنه أبو لؤلؤة المجوسي بخنجر مسموم في صلاة الفجر، فيأمر أصحاب عمر بإيقاظه للصلاة، ويهزه برفق ليصلي؛ فيقوم رضي الله عنه بأدائها، وجرحه ينزف دمًا، وقارن بين حال البعض الآن إذا مرض قريب له وأمره الطبيب بملازمة الفراش فترة من الوقت، يترك الصلاة ولا يعينه أقاربه عليها بدعوى أن الدين يسر وليس عسرًا !!

ولو طلب أحد الناس منهم إيقاظه للصلاة لرموه بالتعنت، بل انظر إلى حال بعض الأزواج يعود متأخرًا إلى بيته فيأكل ويدخل لينام آمرًا زوجته ألا توقظه، فإذا تجرأت على إيقاظه لصلاة الفجر لربما سبّها أو لطمها أو طلقها لمخالفة أمره، وانظر إلى شفقة البعض على أبنائه ونسائه فلا يوقظهم لصلاة الفجر بدعوى أنهم مجهدون من مشقة الدراسة أو العمل !!

رابعا: علاقة هذا العامل بالصبر عن المعاصي:

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ: إِنَّ فَتًى من قريش، أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي فِي الزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ، وَقَالُوا: مَهْ مَهْ، فَقَالَ: "ادْنُهْ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا، فَقَالَ: "أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ، قَالَ: "أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟، قَالَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ، قَالَ: "أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ، قَالَ: "أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ، قَالَ: "أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: "وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ، قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ. فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ. (رواه أحمد وصححه الألباني).

فانظر أخي الحبيب كيف وقعت كلمات النبي صلى الله عليه وسلم في قلب ذلك الشاب فصبر على معصية الله عز وجل، وقارن بين حاله وحال بعض الشباب اليوم عندما يفتخر بالزنا، بل وصل الحال ببعضهم إلى الافتخار بالزنا في نهار رمضان، بالرغم من أنه لا يرضاه لأمه ولا لأخته، ولا لابنته ولا لعمته ولا لخالته، ولو تمسك بهديه صلى الله عليه وسلم في النهى عن الزنا، لصبر عليه.

فنسأل الله أن يعلمنا سنة نبينا، وأن يجعلنا بها عاملين، وبه مقتدين.

باب الفقه

صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم

أحكام الصلاة

صلاة من لا يحسن قراءة الفاتحة

إعداد/ د. حمدي طه

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

قلنا في العدد السابق إنَّ قراءة الفاتحة لا تجزئ صلاةٌ بدونها، وإنَّ على المصلي أن يقرأها في كل ركعة من ركعات صلاته، ولكن قد يدخل في الإسلام شخص لا يعرف الفاتحة ولا يحفظها وعاجلته الصلاة المكتوبة قبل أن يتعلمها فيمكنه في هذه الحالة الاستعاضة عنها بما يحفظه من القرآن، فإن كان لا يحفظ من القرآن شيئاً استعاض عنه بالقول [سبحان الله والحمدُ لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله] فإن استعصى عليه حفظُه كله أمكنه حفظ جزء من هذا الذكر وتكون صلاته صحيحة. [الجامع لأحكام الصلاة، محمود عبد اللطيف عويضة ٢/٢١٥].

والأصل في ذلك حديث رفاعة بن رافع - في حديث المسيء صلاته - أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال «... إذا قمتَ إلى الصلاة فتوضأ كما أمرك الله ثم تشهَّد، فأقم ثم كبِّر، فإن كان معك قرآن فاقرأ به وإلا فاحمد الله وكبِّره وهلِّله ثم اركع...». رواه ابن خُزَيمة. ورواه الترمذي باختلاف يسير في اللفظ. ففي هذا الحديث أمره الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يقرأ أولاً قرآناً، وإلا حمد الله وكبَّره وهلَّله.

وحديث عبد الله بن أبي أوفى قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: إني لا أستطيع أن آخذ شيئا من القرآن فعلمني ما يجزئني قال: قل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله) - رواه أحمد وأبو داود والنسائي والدارقطني ولفظه فقال: (إني لا أستطيع أن أتعلم القرآن فعلمني ما يجزئني في صلاتي) فذكره.

أما الحديث الأول فهو طرف من حديث المسيء صلاته. وأما الحديث الثاني فقد عين الحديث الثاني(تحذف للتكرار) لفظ الحمد والتكبير والتهليل المأمور به ولا يخفى أنه من التقييد بما وافق المطلق.

(والحديثان) يدلان على أن الذكر المذكور يجزئ من لا يستطيع أن يتعلم القرآن وليس فيه ما يقتضي التكرار فظاهره أنها تكفي مرة وقد ذهب البعض إلى أنه يقوله ثلاث مرات (قال شارح المصابيح: اعلم أن هذه الواقعة لا تجوز أن تكون في جميع الأزمان لأن من يقدر على تعلم هذه الكلمات لا محالة يقدر على تعلم الفاتحة بل تأويله لا أستطيع أن أتعلم شيئا من القرآن في هذه الساعة، وقد دخل على وقت الصلاة فإذا فرغ من تلك الصلاة لزمه أن يتعلم. والحديثان يدلان على أن الذكر المذكور يجزئ من لا يستطيع أن يتعلم القرآن وليس فيه ما يقتضي التكرار فظاهره أنها تكفي مرة وقد ذهب البعض إلى أنه يقوله ثلاث مرات، والقائلون بوجوب الفاتحة في كل ركعة لعلهم يقولون بوجوبه في كل ركعة.) [نيل الأوطار للشوكاني ٢/٢٤٨].

مسألة: هل يلزم من لا يحسن الفاتحة أن يتعلمها؟

والجواب: نعم؛ يلزم أن يتعلَّمها؛ لأن قراءتَها واجبةٌ، وما لا يتمُّ الواجبُ إلا به فهو واجبٌ. كعادم الماء؛ يجب عليه طلبُه وشراؤه للوُضوء أو الغسل به إنْ كان يُباع؛ لأنَّ ما لا يتمُّ الواجبُ إلا به فهو واجبٌ، فيلزم أن يتعلَّم هذه السُّورة، فإن ضاق الوقتُ قرأ ما تيسَّرَ من القرآن من سواها؛ لعموم قوله صلَّى الله عليه وسلَّم: «اقرأ

ما تيسَّرَ معك من القرآن»، فإن لم يكن معه قرآن فإنه يُسَبِّحُ، فيقول: «سبحان الله، والحمدُ لله، ولا إله إلا الله، واللهُ أعلم. [الشرح الممتع لابن عثيمين ٣/٧٠].

مسألة الذكر الوارد خمس كلمات. فإن قال قائل: كيف يجزئ الخمس عن السَّبع؛ لأن الآيات في الفاتحة سَبْع؟

فالجواب: أنه لا يلزمُ أن يكون البدلُ مساوياً للمُبدل منه، ألا ترى أنَّ كسوةَ العشرة في كفَّارة اليمين لا يساويها إطعامُهم في الغالب، ولا تساوي عِتْقَ الرَّقبة أيضاً، فالبدلُ لا يلزم منه مساواة المُبدل منه، لكن قال فقهاؤنا رحمهم الله: إذا كان عنده شيءٌ من القرآن سوى الفاتحة وجب عليه أن يقرأ منه بقَدْرِ الفاتحة، وفرَّقوا بين هذا وبين الذِّكر؛ بأن ما يُقدَر عليه من جنس ما عُجِز عنه؛ فوجب أن يكون مساوياً له، بخلاف البدل المحض فإنه لا يلزم.(توثيق النقل)

فصارت المراتب الآن: قراءة الفاتحة، فإن عجز فبما تيسَّرَ منَ القرآنِ من غيرها، فإن عَجَزَ فالتَّسبيحُ، والتَّحميد، والتَّكبير، والتَّهليل والحوقلة.

التأمين في الصلاة:

ويكون بلفظ (آمين) ومعناها: اللَّهُمَّ اسْتجِبْ، وعلى هذا؛ فهي اسمُ فِعْلِ دعاء، واسمُ الفعلِ ما كان فيه معنى الفعل دونَ حروفه.

١- فضلها: عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما حسدتكم اليهود على شيء، ما حسدتكم على السلام والتأمين خلف الإمام». رواه أحمد وابن ماجه.(هل بالإمكان نقل الحكم على الحديث من كلام من حكم عليه من كبار الأئمة ونفس الكلام في باقي الأحاديث التي لم تنقل الحكم عليها)

٢- مشروعية التأمين: يشرع لكل مصل، إمامًا أو مأموما أو منفردًا، أن يقول آمين، بعد قراءة الفاتحة، يجهر بها في الصلاة الجهرية، ويسر بها في السرية. فعن نعيم المجمر قال: صليت وراء أبي هريرة فقال: بسم الله الرحمن الرحيم، ثم قرأ بأم القرآن، حتى إذا بلغ (ولا الضالين) فقال آمين، وقال الناس: آمين. ثم يقول أبو هريرة بعد السلام: والذي نفسي بيده إني لأشبهكم صلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم، ذكره البخاري تعليقا. ورواه النسائي وابن خزيمة وابن حبان وابن السراج.

وعن أبي هريرة: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تلا: (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) قال: آمين، حتى يسمع من يليه من الصف الأول(البخاري: (١/١٩٨).

رواه أبو داود وابن ماجه وقال: حتى يسمعها أهل الصف الأول فيرتج بها المسجد. ورواه أيضا الحاكم وقال: صحيح على شرطهما، والبيهقي وقال: حسن صحيح. والدار قطني وقال: إسناده حسن.

وعن وائل بن حجر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فقال: آمين، يمد بها صوته. (فقه السنة ١/١٥٠).

وقال نافع : كان ابن عمر لا يدعه ، ويحضهم وسمعت منه في ذلك خبراً .(صحيح البخاري تعليقاً ١/٣٧٠).

وعن عطاء قال : قلت له : أكان ابن الزبير يؤمن على إثر أم القرآن ؟ قال : نعم ، ويؤمن من وراءه حتى إن للمسجد للجة . (مصنف عبدالرزاق ٢/٩٦).

حكم التأمين عقب الفاتحة:

التأمين للمنفرد سنة، سواء أكانت الصلاة سرية أم جهرية، ومثله الإمام والمأموم في السرية.

أما الإمام في الصلاة الجهرية فللعلماء فيه ثلاثة آراء:

أولاً: ندب التأمين، وهو قول الشافعية، والحنابلة، والحنفية، وهو رواية المدنيين من المالكية لحديث: إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه.

ثانيًا: عدم الندب، وهو رواية المصريين من المالكية، ودليل عدم استحسانه من الإمام ما روى مالك عن سمي عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا قال الإمام: غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فقولوا: آمين، فإنه من وافق قوله قول الملائكة غفر له، وهذا دليل على أنه لا يقوله؛ لأنه صلى الله عليه

وسلم قسم ذلك بينه وبين القوم، والقسمة تنافي الشركة».

ثالثا: وجوب التأمين، وهو رواية عن أحمد، قال في رواية إسحاق بن إبراهيم: آمين أمر من النبي صلى الله عليه وسلم. [الموسوعة الفقهية الكويتية: ١/١١٢].

وسبب اختلافهم حديثان متعارضان في الظاهر:

أحدهما - حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا، فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه» (رواه الجماعة).

والثاني - حديث أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قال الإمام: غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فقولوا: آمين (رواه أبو داود).

فالحديث الأول نص في تأمين الإمام. والحديث الثاني: يستدل منه على أن الإمام لا يؤمن؛ لأنه لو كان يؤمن، لما أمر المأموم بالتأمين عند الفراغ من الفاتحة قبل أن يؤمن الإمام؛ لأن الإمام، كما قال عليه الصلاة والسلام إنما جعل ليؤتم به.

فرجح مالك الحديث الثاني الذي رواه، لكون السامع هو المؤمن، لا القارئ الداعي.

ورجح الجمهور الحديث الأول لكونه نصاً في الموضوع؛ لأنه ليس فيه شيء من حكم الإمام، وإنما الخلاف بينه وبين الحديث الآخر في موضع تأمين المأموم فقط، لا في: هل يؤمن الإمام أو لا يؤمن. [الفقه الإسلامي وأدلته (٢/٣٦٨)].

قلت: وأرجح قول الجمهور لقوة دليلهم ولأن فيه جمع بين الأدلة وإعمال الكلام أولى من إهماله قاعدة فقهية مشهورة.

وأما المأموم فالجمهور على أن التأمين في حقه سنة لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أمن الإمام فأمنوا، فإن من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه». [رواه الجماعة].

قال الحافظ: وهذا الأمر عند الجمهور للندب. وحكى ابن بزيزة عن بعض أهل العلم، وجوبه على المأموم عملا بظاهر الأمر. وأوجبته الظاهرية على كل من يصلي. [فتح الباري ٢/٢٦٤]، والظاهر من الحديث الوجوب على المأموم فقط لكن ليس مطلقا بل مقيدا بأن يؤمن الإمام، وأما الإمام والمنفرد فمندوب فقط. [نيل الأوطار ٢/٢٤٤].

المقارنة والتبعية في التأمين:

مَذْهَبُ الشَّافِعِيَّةِ، وَالأَصَحُّ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ أَنَّ مُقَارَنَةَ تَأْمِينِ الإِمَامِ لِتَأْمِينِ الْمَأْمُومِ سُنَّةٌ، لِخَبَرِ إِذَا أَمَّنَ الإِمَامُ فَأَمِّنُوا فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلاَئِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَخَبَرِ إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ: آمِينَ، وَقَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ فِي السَّمَاءِ: آمِينَ، فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ رَوَاهُ الشَّيْخَانِ. [الموسوعة الفقهية الكويتية ١/١١٤].

وبحديث أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِذَا قَالَ الإِمَامُ: غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ، فَقُولُوا: آمِينَ، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ الْمَلاَئِكَةِ غُفِرَ لَهُ. [رواه البخاري].

قال الإمام النووي: فيه دلالة ظاهرة لما قاله أصحابنا وغيرهم أن تأمين المأموم يكون مع تأمين الإمام لا بعده. وقوله: (ومن وافق تأمينه تأمين الملائكة) معناه وافقهم في وقت التأمين فأمن مع تأمينهم فهذا هو الصحيح والصواب. [شرح النووي على مسلم ٢/١٤٥].

وَمُقَابِلُ الأَصَحِّ عِنْدَ الْحَنَابِلَةِ أَنَّ الْمُقْتَدِيَ يُؤَمِّنُ بَعْدَ تَأْمِينِ الإِمَامِ. واستدلوا بظاهر قوله صلى الله عليه وسلم: «إذا أمَّنَ الإمامُ فأمِّنوا»، قالوا: وهذا كقوله: «إذا كبَّر فكبِّروا»، ومعلومٌ أنك لا تكبِّر حتى يفرغ الإمامُ من التكبير فيكون معنى قوله «إذا أمَّنَ» أي: إذا فَرَغ من التأمين. ولكن هذا القول ضعيف. لأنه مصرَّحٌ به في لفظ آخر: «إذا قال الإمام: ولا الضالين، فقولوا: آمينَ».

فينبغي حمل بعض الألفاظ على بعض، وعلى هذا؛ فيكون المعنى: إذا أمَّن، أي: إذا بَلَغَ ما يُؤَمَّنُ عليه وهو «وَلاَ الضَّالِّينَ»، أو إذا شرَعَ في التأمين فأمِّنوا؛ لتكونوا معه. [الشرح الممتع لابن عثيمين ٣/٦٩].

وعلى هذا يستحب للمأموم أن يوافق الإمام، فلا يسبقه في التأمين ولا يتأخر عنه؛ جمعًا بين الأدلة. [فقه السنة ١/١٥٠].

وللحديث بقية إن شاء الله.

البشارة في القرآن والسنة

إعداد/ فضيلة الشيخ
عبد الباري الثبيتي
إمام المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة



الحمد لله، الحمد لله المُتفضِّل على عباده بالخير والبشائر، أحمده -سبحانه- وأشكرُه على جُوده وكرمه ونعمائه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يعلمُ خائنةَ الأعيُن وما تُخفِي السرائر، وأشهد أن سيدَنا ونبيَّنا محمدًا عبدُه ورسولُه من اتَّبع هُداه فهو إلى الجنة صائر، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أُولِي الفضل والبصائر.

أما بعد: فأوصيكم ونفسي بتقوى الله، قال الله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) [آل عمران: ١٠٢].

كلمات تبعث الأمل:

"البشارةُ" و"البُشرى" و"المبشرات" كلماتٌ معانيها تبعَثُ الأمل، وتشحَذُ الهِمَم، تُعالِجُ القنوطَ واليأسَ، وهي عاملُ ثقةٍ بموعود الله، تُذهِبُ الهمومَ والغمومَ.

والبشارةُ المطلقةُ لا تكونُ إلا بالخير، وإنما تكونُ بالشرِ إذا كانت مُقيَدة، وفي القرآن صُورٌ من المبشرات، وميدانٌ فسيحٌ تملؤه البُشريات.

أنزل الله القرآنَ تبيانًا لكل شيء، (وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ) [النحل: ٨٩]، (يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا) [الإسراء: ٩].

آياتُ القرآن تسكُبُ في قلب المؤمن السَكينة، ويستروحُ بها البُشرى، قال جبريل -عليه السلام- لنبينا محمد -صلى الله عليه وسلم-: "هذا بابٌ من السماء فُتِح اليوم، لم يُفتَح قط إلا اليوم، فنزل منه ملَك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشِر بنورين أُوتيتَهما، لم يُؤتَهما نبيٌ قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرفٍ منهما إلا أُعطيتَه". أخرجه مسلم.

النبي يدعو للتبشير وينهى عن التنفير:

والرسول -صلى الله عليه وسلم- مُبشِر، وهو بشيرٌ ونذيرٌ، قال الله تعالى: (وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا) [الفرقان: ٥٦].

دعا النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى التبشير، ونهَى عن التنفير، فقال: "بشروا ولا تُنفروا، ويسروا ولا تُعسِروا". وأمرَ أصحابَه فقال: "ادعُوا الناس، وبشِرا ولا تُنفِرا، ويسِروا ولا تُعسِروا".

التوازن بين التبشير والتخويف:

والتوازُن بين التبشير والتخويف هديُ سيد

المُرسلين، وهو المنهجُ الوسَط: نرجُو رحمةَ الله، ونخشى عقابَه.

سماعُ المُبشرات يزيدُ من الاجتهاد والحرص على الطاعة؛ عثمانُ -رضي الله عنه- قال عنه رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: "ما ضرَ عُثمانَ ما عمِل بعد اليوم". وما زادَه ذلك إلا خيرًا وبرًا وطاعة.

أثر المبشرات في رفع الروح المعنوية:

التبشيرُ دعمٌ معنويٌ وتثبيتٌ لا غنى عنه، يتجلى هذا في موقف خديجة -رضي الله عنها- تقول لزوجها -صلى الله عليه وسلم-: "أبشِر، فوالله لا يُخزيك الله أبدًا".

فما أنبلَ أن يسمع الزوجان من بعضهما، والجنديُ من قائده، والمرؤوسُ من رئيسه كلمة التأييد والتثبيت، تزُف له البُشرى عند الخوف والحزن.

المُنيبُون لهم البُشرى، قال الله تعالى: (وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ) [الزمر: ١٧].

والمُتقون بشارتُهم الفوز، قال الله تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) [يونس: ٦٣، ٦٤].

والمجاهدون بشارتُهم الرخاءُ والرضوانُ، قال الله -تعالى-: (الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ) [التوبة: ٢٠، ٢١].

أما الصابرون، فيقول الله -تبارك وتعالى- فيهم: (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧)) [البقرة: ١٥٥- ١٥٧].

والبشارةُ للمشائين إلى المساجد، قال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: "بشِر المشائين في الظُلَم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة".

ومَن ابتُلي بمرض، فإن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: "أبشِر، فإن الله يقول: هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن في الدنيا، لتكون حظه من النار في الآخرة".

وقد أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يُبشِر خديجة ببيتٍ في الجنة من قصب لا صخَب فيه ولا نصَب.

وبشر رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عمار بن ياسر -رضي الله عنه- فقال: "أبشِر عمار، تقتلُك الفئة الباغية".

وأولياءُ الله لهم البُشرى في الدنيا والآخرى، قال الله -تعالى-: (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) [يونس: ٦٢- ٦٤].

عاجل بُشرى المؤمن:

ومن عاجل بُشرى المؤمن: ثناءُ الناس على أعماله التي أخفاها فأظهرها الله، عن أبي ذر -رضي الله عنه- قال: قيل لرسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أرأيتَ الرجل يعمل العملَ من الخير ويحمَده الناسُ عليه. قال: "تلك عاجلُ بُشرى المؤمن".

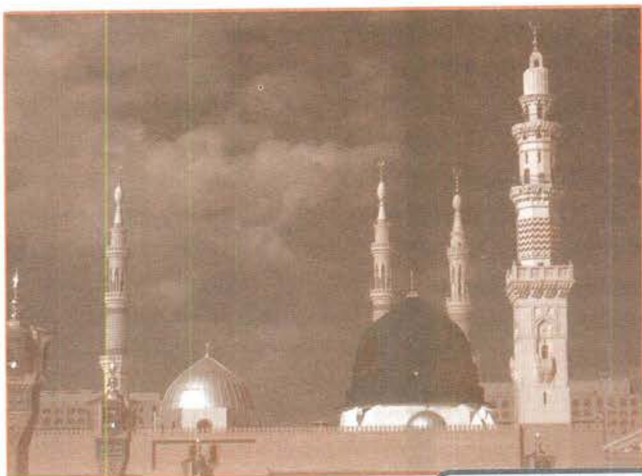
والرُؤيا الصالحةُ من صُور البُشرى، قال رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم-: "لم يبق من النبوَة إلا المُبشرات". قالوا: وما المُبشراتُ يا رسول الله؟! قال: "الرُؤيا الصالحة". رواه البخاري ومسلم.

الاستبشارُ بالولد والتبشيرُ به سُنّةٌ مشروعة، وذمَ الله تعالى من تبرم من الأنثى واستثقلها، (يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا) [الشورى: ٤٩، ٥٠]، وقال تعالى: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) [النحل: ٥٨، ٥٩].

والرياحُ مُبشرات، قال الله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) [الروم: ٤٦].

علامة إرادة الله الخير بعبده:

وهناك علاماتٌ لأولياء الله وأصفيائه تدلُ على أن الله -سبحانه وتعالى- أراد بهم الخير، يدخلُ فيه: ما يُشاهدونه من اللُطف والتوفيق، والتيسير لليُسرى، وتجنيبُهم العُسرى؛ لأن الله يقول: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ



وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ) [الليل: ٥- ٧]، ويقول: (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا) [الطلاق: ٤].

فإذا رأيتَ الأمورَ مُيسَرةً لك ومُسهَلةً، وأن الله يُقدرِ لك الخيرَ حتى وإن كنتَ لا تحتسِب؛ فهذه لا شك أنها بُشرى.

وألطفُ من ذلك: أنه يجعلُ الشَدائدَ مُبشرةً بالفَرَج، والعُسرَى مُؤذنًا باليُسر. وهذا ما قصَه القرآنُ عن أنبياء الله وأصفيائه، وكيف أنه لما اشتدَت بهم الحالُ، وضاقت عليهم الأرضُ بما رحُبَت، جاءَهم الفرَجُ، (وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) [البقرة: ٢١٤].

وتتكشفُ للمؤمن عند موته بعضُ البشائر في تغسيله، وتكفينه، وحال النَزع، وأما البُشرى عند مُفارَقَة الدنيا فيقول الله -تبارك وتعالى-: (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي) [الفجر: ٢٧- ٣٠].

من صور البشرى:

ومن المُبشرات العظيمة: البشارةُ بقبول التوبة، يتجلى ذلك في توبة كعب بن مالك -رضي الله عنه-، فبعد أن أمضى الثلاثةُ الذين خُلفُوا خمسين ليلةً في عُزلة عن مُجتمع المدينة، يقول كعبُ بن مالك: فبيْنَا أناْ جالسٌ على الحالِ التي ذكرَ الله -عز وجل- منا، قد ضاقَت عليَ نفسي، وضاقت عليَ الأرض بما رحُبَت، سمعتُ صوتَ صارخ أوفَى على سَلْع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك: أبشر. قال: فخررتُ ساجدًا، وعرفتُ أن قد جاء فرَجُ، فتلقاني الناسُ فوجًا فوجًا، يُهنئُونني بالتوبة، ويقولون لي: لتهنَك توبةُ الله عليك.

قال كعبٌ: فلما سلَمتُ على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال وهو يبرُقُ وجهُه من السرور: "أبشر بخيرِ يوم مرَ عليك مُنذ ولدَتْك أمُك". قال: فقلتُ: أمن عندكَ يا رسول الله، أم من عند الله؟! فقال: "لا، بل من عند الله".

وكان رسولُ الله -صلى الله عليه وسلم- إذا سُرَ استنارَ وجهُه كأنَ وجهه قطعة قمر. قال: فأنزل الله -عز وجل-: (لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ). [التوبة: ١١٧] الآية.

من المُبشرات -عباد الله-: الثوابُ الجزيلُ على العملِ اليسير، ومن ذلك: صيامُ يوم عاشوراء، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "أحتسبُ على الله أن يُكفر السنة التي قبلَه". رواه مسلم.

وقال: "لئن بقيتُ إلى قابلٍ لأصُومنَ التاسعَ". رواه مسلم.

وصحَ عن ابن عباس -رضي الله عنهما- موقوفًا: "صيامُ يوم قبلَه ويوم بعدَه".

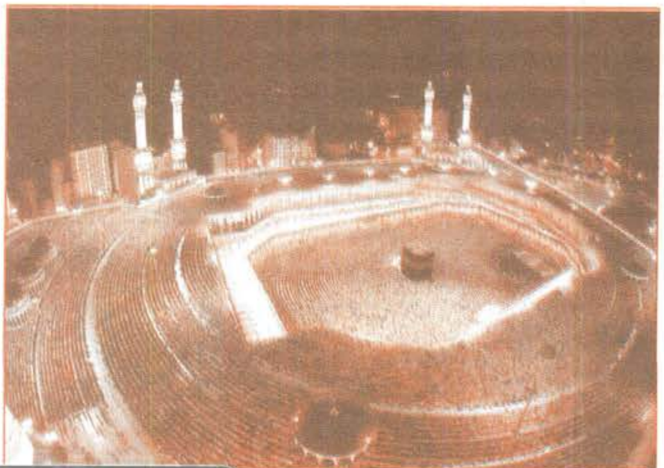
ألا وصلوا -عباد الله- على رسول الهُدى؛ فقد أمرَكم الله بذلك في كتابه، فقال: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك محمد، وارضَ اللهم عن الخلفاء الأربعة الراشدين: أبي بكرٍ، وعُمر، وعُثمان، وعلي، وعن الآل والصَحب الكرام، وعنا معهُم بعفوك وكرمك وإحسانك يا أرحمَ الرَاحمين.

اللهم أعزَ الإسلامَ والمُسلمين، اللهم أعزَ الإسلامَ والمُسلمين، اللهم أعزَ الإسلامَ والمُسلمين، وأذل الكفرَ والكافرين، ودمر اللهم أعداءَك أعداءَ الدين.

اللهم أصلح أحوال المسلمين في كل مكان، اللهم انصُر من نصر الدين، واخذُل اللهم من خذل الإسلام والمسلمين، اللهم انصُر دينَك وكتابَك وسُنَة نبيك وعبادَك المؤمنين.

اللهم إنَا نسألك الجنة وما قرَبَ إليها من قولٍ وعمل، ونعوذُ بك من النار وما قرَبَ إليها من قولٍ وعملٍ.



اللهم أصلح لنا دينَنا الذي هو عصمةُ أمرنا، وأصلح لنا دُنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتَنا التي فيها معادُنا، واجعل الحياةَ زيادةً لنا في كل خير، والموتَ راحة لنا من كل شر يا رب العالمين.



والثمن مرافقة النبي صلى الله عليه وسلم

إعداد/ عبده الأقرع

الحمد لله المنعم المتفضل بجزيل العطايا والإحسان، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعدُ:

فلقد كانت البشرية في فترة من عصورها قد التوت بها سبلُ الحياة، فانطفأت في قلبها مشاعل الرحمة والفهم المستنير، وأظلمت في نفسها معاني السمو والشفقة، فقتلت الأبناء مخافة الفقر، ووأدت البنات خشية العار، فإنَّ ذلك كان شذوذًا خرجت به البشرية عن دائرة العقل السليم، وعاطفة الأبوة الرحيمة، وخسرت بسببه كثيرًا من النعم، هذا الأمر الذي عبّر عنه القرآن الكريم: « قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ » [الأنعام: ١٤٠].

وجاء عرب الجاهلية فأكملوا الجرم بوأد البنات خشية من عار التزوج بزوج دون أبيها في المكانة والشرف، أو عار الفاحشة، قال الله تعالى: « وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ » [الأنعام: ١٣٧]، وكان للعرب تفنن في الوأد، فمنهم من إذا صارت بنته سداسية يقول لأمها: طيّبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها، وقد حفر لها بئرًا في الصحراء فيبلغ بها البئر فيقول لها: انظري فيها ثُمَّ يدفعها من خلفها ويهيل عليها بالتراب حتى تستوي بالأرض. ومنهم من كان إذا ضربت امرأته من الوضع، حفر حفرة للمخاض على رأس الحفرة، فإذا ولدت بنتًا رمت بها في الحفرة، وإن ولدت ابنًا حبسته. انظر إلى هذه القسوة وغلظ القلب وقتل البنات البريئات بغير ذنب سوى خوف الفقر والعار، قال الله تعالى: « وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ » [النحل: ٥٨- ٥٩].

وجاء الإسلام فانتقل بهذه الأُمة الجاهلية نقلة كبيرة واسعة، فبعد أنْ كانت البنات عارًا يلاحقهم، صاروا يُكنون بهن ولا يجدون في ذلك حرجًا أو ضيقًا ولا عيبًا أو أذى، وربما رضي بالبنت- واحدة قسمًا وحظًا من الذرية، فأبو أمامة صدي بن عجلان الباهلي، وأبو أمامة إياسُ بن ثعلبة الأنصاري الحارثي، وأبو رقية تميم بن أوسي الداري، وأبو كريمة المقدام بن معديكرب وغيرهم، رضي الله عنهم جميعًا، وكان من أثر هذه الوثبة: أن صار أدباء الصدر الأول يصوغون في مدحهن ما هو أبهى من عقود الجمان، فمن ذلك قول معن بن أوس:

رأيت رجالاً يكرهون بناتهم
وفيهن لا نكذب نساء صوالحُ
وفيهن والأيام يعثرن بالفتى
خوادم لا يملكنه ونوائح

وحُكي أن عمرو بن العاص دخل على معاوية وعنده ابنته، فقال: من هذه يا معاوية؟ فقال: هذه تفاحة القلب وريحانة العين وشمامة الأنف. وفي رقعة للصاحب بالتهنئة بالبنت: أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء، وأم الأبناء، وجالبة الأصهار، والأولاد والأطهار. والمبشرة بإخوة يتناسقون، وبنجباء يتلاحقون.

نظرة جاهلية حرمها الإسلام:

والآن من الزوجات من تُبكر ببنت، وتُثنّي ببنت، وتُثلث ببنت، وقد تربع ببنت، فلا تجد هذه الحالة قبولاً لدى كثير من الأسر، فيهجرها زوجها ويقاطعها أو يجبرها على أخذ مانع يمنعها من الحمل، وتصبح الزوجة وتُمسي وهي تسمع عبارات عدم الرضا واللوم والنقد والتوبيخ تقرع أذنها، وتنظر النساء في الأسرة إليها نظرة ازدراء واستخفاف، وتصبح حياتها حياة تعسة لما ترى من المعاملة، ولما تحس من التحقير، إننا نؤكد أنّ هذه النظرة نظرة جاهلية حرمها الإسلام تحريمًا قاطعًا؛ لأنها تحمل في طياتها الأمور التالية:

أولاً: الرجوع إلى الجاهلية الظالمة التي تبرأ منها المجتمع الإسلامي منذ العصر النبوي.

ثانيًا: الاعتراض على قدرة الله، والسخط على عطائه.

والسبب في ذلك يعود إلى ضعف الإيمان، وزعزعة اليقين؛ لكونهم لم يرضوا بما قسمه الله لهم من إناث، لم يملكوا ولا نساؤهم، ولا مَن في الأرض جميعًا، أن يغيّروا من خلق الله تبارك وتعالى في تدبيره المبرم، وإرادته النافذة ومشيئته المطلقة وأمره الغالب في شأن الإناث، وشأن الذكور، قال الملك الحق: «لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ» [الشورى: ٤٩، ٥٠]، فهو سبحانه وتعالى بحكم سلطانه على الأرض والسماء، فإنه يتصرف كيف يشاء، وهذا ناتج عن علم أحاط بكل شيء، وقدرة أخضعت لها كل شيء.

من السفه الاعتراض على حكم الله:

فالواجب أن يُسلم العبد لربه فيما وهبه وأعطاه، ومن السفه الاعتراض على حكم الله، فالتشاؤم من البنات مرفوض شرعًا وعقلاً، عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا مرَّ بالنُّطفة اثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكًا فصوّرها، وخلق سمعها وبصرها، وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يا رب أذكرٌ أم أنثى؟ فيقضي ربك ما شاء، ويكتبُ الملك، ثم يقول: يا رب أجله؟ فيقول ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب رزقه؟ فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يخر الملك بالصحيفة في يده، فلا يزيدُ على أمرٍ ولا ينقصُ». [صحيح الجامع: ٧٩٧].

دور الرضا بالقدر في اقتلاع جذور الجاهلية:

يجب على الأسرة المسلمة الرضا بما قسم الله لها من البنين والبنات، وترضى كذلك إذا حرمها، فلا تسخط إذا جاء القسم على غير هواها أو مزاجها، وهذا الرضى ينم عن إيمان عميق في القلب، ولكي يقتلع رسول الله صلى الله عليه وسلم من بعض النفوس الضعيفة جذور الجاهلية خصَّ البنات بالذكر، وأمر الآباء والمربين بحسن صحبتهن، والعناية بهنّ، والقيام على أمورهن، ليستأهلوا دخول الجنة، وبالتالي حتى تكون تربية البنات وتحقيق الخير لهن على الوجه الذي يرضي الله سبحانه، ويأمر به الإسلام.

بعض التوجيهات النبوية في وجوب العناية بالبنات:

وإليكم بعض التوجيهات النبوية في وجوب العناية بالبنات والاهتمام بهنّ: فعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين، وضم أصابعه». [مسلم: ١٤٣٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس أحدٌ من أُمتي يعولُ ثلاث بنات، أو ثلاث أخوات، فيحسن إليهن، إلا كُنَّ له سترًا من النار». [صحيح الجامع: ٢٦٣٠].

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كان له ثلاث بنات يؤويهنّ ويكفيهن ويرحمهن، فقد وجبت له الجنة البتة». فقال رجل من بعض القوم: وثنتين يا رسول الله؟ قال: وثنتين. [الصحيحة: ١٠٢٧].

وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من عال جاريتين حتى يدركا، دخلت أنا وهو الجنة كهاتين، وأشار بأصبعيه». [صحيح الجامع: ٦٣٩١].

فما أعظم نعمة الإسلام على الإنسانية بأسرها، وما أجدر هذا الفضل في تربية البنات!!

ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين، واجعلنا للمتقين إمامًا، وصل اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فتاوى



من فتاوى الأزهر الشريف

حكم إيداع الأموال بالبنوك بفائدة محددة

س: بالطلب المتضمن أن المصارف في مصر تعطي فائدة سنوية لكل مائة مبلغًا قدره ٧. ٥ أو ٨,٥ أو ١٣، وقد أفتى بعض العلماء بجواز ذلك، حيث إن التعامل ليس مع الأفراد ولكن مع المصارف التي تتبع الحكومة، وطلب السائل الإفادة عن حكم هذه الفائدة.

الجواب: قال الله تعالى في سورة البقرة: «الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ× يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ» [البقرة: البقرة ٢٧٥، ٢٧٦]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الذهب بالذهب يدًا بيد، والفضل ربا)، ومن هذه النصوص الشرعية وغيرها يكون الربا محرمًا، سواء أكان ربا نسيئة أو ربا زيادة، ولما كان إيداع المال بالبنوك نظير فائدة محددة مقدمًا قد وصفه القانون بأنه قرض بفائدة، فإن هذه الفائدة تكون من قبيل ربا الزيادة المحرم شرعًا، وبالتالي تصبح مالاً خبيثًا لا يحل للمسلم الانتفاع به، وعليه التخلص منه بالصدقة.

أما القول بأن هذا التعامل ليس بين الأفراد ولكن مع المصارف التي تتبع الحكومة، فإن الوصف القانوني لهذه المعاملات قرض بفائدة لا يختلف في جميع الأحوال، ولم يرد في النصوص الشرعية تفرقة بين الربا بين الأفراد وبين الربا بينهم وبين الدولة، وعلى المسلم أن يكون كسبه حلالاً يرضى عنه الله، والابتعاد عن الشبهات، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الخلاصة: الفائدة المحددة التي تصرفها البنوك نظير إيداع الأموال بها هي من قبيل ربا الزيادة المحرم شرعًا، ولا فرق في حرمة التعامل بالربا بين الأفراد والجماعات، أو بين الأفراد والدولة.

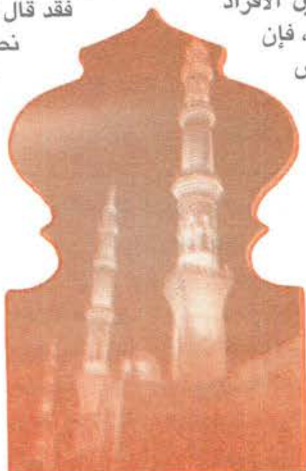
فتوى رقم (١٢٥٥) من فتاوى دار الإفتاء المصرية لسنة ١٤٠٠هـ لفضيلة الشيخ جاد الحق علي جاد الحق رحمه الله.

الاستنجاء من الريح

س: هل يجب الاستنجاء من الريح الخارج من الدبر؟

الجواب: شرع الاستنجاء لإزالة النجاسة الخارجة من السبيلين، القُبل والدبر، وهي البول والغائط وما في حكمهما من مائع وجامد، والريح الخارج من است ليس نجسًا، وبالتالي لا يجب الاستنجاء منه؛ حيث لم يرد نص فيه، والبلوى تكثر به، ولعدم حصر ما يصيبه من الجسم أو الثوب، بل قال بعض الأئمة بكراهة الاستنجاء منه، والدين يسر، فلو خرج الريح بعد الاستنجاء لا يجب الاستنجاء مرة ثانية حتى لو كان المحل لا يزال رطبًا.

جاء في كتاب «الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع» للشربيني الخطيب ما نصه: نقل الماوردي وغيره الإجماع على أنه لا يجب الاستنجاء من النوم والريح. قال ابن الرفعة: ولم يفرّق الأصحاب بين أن يكون المحل رطبًا أو يابسًا، ولو قيل بوجوبه إذا كان المحل رطبًا لم يبعد، كما قيل به في دخان النجاسة. وهذا مردود، فقد قال الجرجاني: إن ذلك مكروه، وصرح الشيخ نصر الدين المقدسي بتأثيم فاعله، والظاهر كلام الجرجاني (٤٧/١).



وجاء في «المغني» لابن قدامة (١٤١/١) ما نصه: وليس على من نام أو خرجت منه ريح استنجاء، ولا نعلم في هذا خلافًا، قال أبو عبد الله: ليس في الريح استنجاء في كتاب الله ولا في سنة رسوله إنما عليه الوضوء، إلى أن قال: لأن الاستنجاء إنما شرع لإزالة النجاسة ولا نجاسة هاهنا. أي في النوم والريح. [لجنة الفتوى بالأزهر رقم: ٨٥٥٢].

سارع أخي المسلم وأختي المسلمة

بالمشاركة بجزء من مالك ومن الزكوات أو الصدقات لنشر التوحيد من خلال المشاركة في الأعمال التالية:

طباعة كتيب يوزع مع مجلة التوحيد مجاناً تتكلف النسخة خمسة وسبعين قرشاً .. يطبع من كل كتيب مائة وخمسون ألف نسخة.

نشر تراث الجماعة من خلال طبع المجلة وتجليد أعداد السنة في مجلد واحد وذلك لعمل كرتونة كاملة ٣٨ سنة من المجلة.

دعم مشروع المليون نسخة من مجلة التوحيد - نسخة من المجلة لكل خطيب من خطباء الأوقاف والأزهر تصله على عنوانه.

نحن بانتظاركم .. يمكنكم المشاركة ودعم ذلك بعمل حوالة أو شيك مصرفي على بنك فيصل الإسلامي.

.. فرع القاهرة حساب رقم ١٩١٥٩٠ باسم مجلة التوحيد.